النبع المعين
بأهم النصائح
للباحثين والمؤلفين

دليلٌ علميٌّ وتربويٌّ شاملٌ في آدابِ التأليف، وضوابطِ البحث، ومنهجِ الكتابةِ النافعة،
مع نبذةٍ موجزةٍ عن طريقةِ التأليف وما يحتاجُهُ الباحثُ في مسيرتِهِ العلميَّة.

تأليف
أبي المنذر عمار بن عبد الجليل بن فرّاج الوريني الحوباني
غفر الله له ولوالديه ولمشايخه والمسلمين

دار الإمام الشافعي
للطباعة والنشر والتوزيع
اليمن - عدن

النبع المعين

بأهم النصائح

للباحثين والمؤلفين

دَلِيلٌ عِلْمِيٌّ وَتَرْبَوِيٌّ شَامِلٌ فِي آدَابِ التَّأْلِيفِ، وَضَوَابِطِ الْبَحْثِ، وَمَنْهَجِ الْكِتَابَةِ النَّافِعَةِ، مَعَ نُبْذَةٍ مُوْجَزَةٍ عَنْ طَرِيقَةِ التَّأْلِيفِ وَمَا يَحْتَاجُهُ الْبَاحِثُ فِي مَسِيرَتِهِ الْعِلْمِيَّةِ

تأليف

أبي المنذر عمار بن عبد الجليل الحوباني

غفر الله له ولوالديه

حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ

الطبعة الأولى:

١٤٤٧ هـ ٢٠٢٥ م

الحمد لله الذي أفاض من نبع علمه على عباده، وفتح لهم أبواب البيان برحمته وإرشاده، وجعل القلم لسان العقل، والكتابة وسيلة الذكر والنفع والنقل.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة تورث العلم النافع، وتستنير بها السبل إلى الصراط المستقيم.

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، المبعوث بالهدى ودين الحق، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، ما تتابعت الأقلام في تسطير العلوم، وتنوعت الألسن في نشر الفهوم.

أما بعد:

فإن التأليف نعمة من نعم الله العظيمة، ومنحة ربانية يختص بها من شاء من عباده، لتكون وسيلته في نشر العلم وهداية الخلق وبقاء الأثر بعد الفناء.

وما من علم انتشر، ولا فكر صفا، إلا وكان وراءه قلم صادق وعزيمة مخلصة.

فالتأليف من أعظم وسائل البيان والدعوة والإصلاح؛ به تحفظ

المعارف، وتقيد الفوائد، وتبقى آثار العلم بعد ذهاب الأجساد والأعمار.

وما من فكر نافع ظهر، ولا علم نشر، إلا وكان وراءه قلم صادق ونية خالصة.

وقد مضى في هذه الأمة رجال عظام، فتح الله لهم أبواب العلم، وشرفهم بخدمة الدين بالقلم، فكانت مصنفاتهم مشاعل هدى، وأصولا يهتدى بها إلى يوم الدين.

سلكوا طريق التأليف بخطى منظمة، ابتدؤوها بالإخلاص، وزينوها بالعلم، وأحاطوها بالصبر، فكتب الله لجهودهم القبول والخلود.

لم يعرفوا العشوائية في مسيرتهم، بل ساروا على منهج راسخ في طلب العلم وتأصيله وتبليغه.

وما من مؤلف صدق مع ربه إلا بارك الله في أثره، وإن قلت صفحاته، وما من كاتب ابتغى وجه الناس إلا طواه النسيان، وإن كثرت مؤلفاته.

وها أنا أضع بين يدي القارئ هذا الكتاب، أجمع فيه ما يسر الله من نصائح وتوجيهات وإرشادات، ليكون زادا لكل مؤلف أراد خدمة دينه ونفع أمته، وأنا أول من يحتاج إلى ما فيه من تذكير وتوجيه.

لقد رأيت أن كثيرا من المؤلفين يقضون أوقاتا طويلة في محاولات متفرقة تضيع فيها الجهود لغياب المنهج، فالعشوائية في التأليف من أشد ما يبدد الوقت ويضعف العطاء؛ إذ لا بد لطالب العلم أن يسير بخطة واضحة تحفظ وقته وتضمن ثمرة جهده.

ومنذ زمن وأنا أفكر في جمع مادة هذا الكتاب، فكنت كلما مر بي موقف في البحث، أو خطر لي توجيه، أو لاح لي معنى نافع في التأليف، قيدته سطرا أو فكرة، حتى تراكمت لدي نبذ لا بأس بها من التجارب والأصول التي رأيتها من أهم ما يحتاجه المؤلف والباحث في طريقه.

ولما صار لدي مجموعة من الإشراقات والتوجيهات، رأيتها جديرة بأن تقدم لإخواني الباحثين والمؤلفين، فبدأت بعد ذلك بصياغة هذه المواد، مستعينا بالله، لا أدعي الإحاطة ولا أزعم الاستيفاء، فإن مادة هذا الباب واسعة، غير أني رجوت أن يكون في هذا الجهد تذكير بالمهم، وتنبيه على الأهم، وأن يجد فيه المؤلف الصادق ما يعينه بإذن الله على السير بخطى ثابتة، وروح مخلصة، ونية نقية.

وقد أسميته: «**النبع المعين بأهم النصائح للباحثين والمؤلفين**»، رجاء أن يكون معينا صافيا لمن قصد وجه الله بعلمه، وطلب نفع الأمة بقلمه، وسعى أن يغترف من خبرة العلماء، ويسير على طريقتهم في خدمة الدين بالعلم والقلم.

وقد كُتب في هذا الشأن مؤلفات عديدة، تنوعت بين التأصيل العلمي والمنهج البحثي(١)، غير أن هذا العمل يركّز على جانبٍ لطيفٍ يغفل عنه

---

(١) ولما انتهيت من تأليف كتابي هذا وقفت على رسالة للأخ الفاضل عبد الشكور الصومالي مطبوعة عن دار الإمام الشافعي فاقتنيتها وهي تصب في هذا الصدد فهي رسالة قيمة عنوانها «منهجية البحوث العلمية» تصفحتها فرأيته قد أتى بما لم آت به من الفوائد المهمة التي يحتاجها كل باحث ومؤلف فأنصح بالرجوع

كثير من الباحثين، وهو البعد التهذيبي والأدبي في شخصية المؤلف، وما ينبغي أن يتحلى به من إخلاصٍ وورعٍ وتواضعٍ وحسن قصدٍ في قلمه.

فليس المقصود مجرد تقويم أدوات البحث، بل تهذيب صاحبها، وتزكية نفسه ليستقيم علمه وعمله معًا.

لقد قصدت من هذا البحث أن أجمع بين العلم والمنهج والتربية، ليكون دليلاً شاملاً للمؤلف في طريقه العلمي والخلقي، يجمع له أصول التأليف وضوابطه، وآداب القلم وأخلاقه، بأسلوبٍ ميسّرٍ قريبٍ من القلب والعقل.

فما كان فيه من صواب فمن الله وحده، وما كان من نقص أو خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه، وأسأله تعالى أن ينفع به، ويجعله خالصًا لوجهه، وأن يرزقني وإخواني المؤلفين الإخلاص في القول والعمل.

إليها وقد استفدت منها بعد الانتهاء من كتابي في جانب ما نقله عن أهل العلم في بعض المواضع فكنت أطلع عليها وأرجع للأصول من كلامهم وأنقله في بعض المواضع من كتابي فجزاه الله خيرا وبارك في جهوده الطيبة.

كَـتَـبَهُ

أبو المـنـــــذر

عـمـار بن عبـد الجليـل

ابـــن هـــزاع الـوريـــفـــي

الحـــــــــوبـــــــانـــــي

عَـفَا اللهُ عَنْـــهُ، وَغَفَـــرَ لَهُ وَلِـوَالِـدَيْـــــهِ.

دار الحـديـث السـلـفـيـة بشـحـوح -سيـئـون-حـضـرموت

لـســـنـــة ١٤٤٧ مـن هـــجـــرة النَّبِيّ مـحـمـــــد- ﷺ-.

تمهيد مقصد الكتاب وغايته

هذا الكتاب خدمة للعلم وأهله، أردت أن يجمع بين بيان المنهج، وتربية النفس المؤلِّفة، وإرشاد الباحث إلى سبيلٍ بيّنٍ في ميدان التأليف والبحث العلمي.

اشتمل على أهم ما ينبغي أن يسلكه المؤلف في سيره في هذا المضمار الشريف، من حيث المقاصد والنيات، والمناهج والوسائل، والأدب والضوابط.

فهو دليل عمليٌّ للمؤلفين والباحثين، يرسم لهم الطريق إلى تأليف الكتب التي تخدم الإسلام وتنفع المسلمين، بعيدًا عن الغرور، والارتجال، والتكلف.

وقد جُمعت فيه خلاصة التجارب، ونفائس التوجيهات، في شأن التصنيف وآدابه، مع بيان ما يحتاجه المؤلف من أدوات علمية، وصفاتٍ نفسية، ومهاراتٍ بحثية، وأسسٍ فنيةٍ تعينه على إخراج مؤلفٍ متينٍ رصينٍ يليق برسالة العلم ويؤدي واجب البلاغ.

كما ضمّ الكتاب نبذة جامعة عن طريقة التأليف: من اختيار الفكرة، ووضع الخطة، وجمع المادة، والتحرير والمراجعة، إلى الطباعة والنشر

ومتابعة الأثر، مبيِّنًا ما يحتاجه الباحث من صبرٍ وصدقٍ وحرصٍ على النفع العام.

فالغاية من هذا العمل ليست مجرد تعليم صنعة الكتابة، بل تهذيب نية المؤلف، وتزكية طريقه، ليكون قلمه شاهدَ صدقٍ على إخلاصه لله، ونفعه لعباد الله.

قال حاجي خليفة رحمه الله في «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» (١/ ٣٨):

اعلم: أن المؤلفين المعتبرة تصانيفهم فريقان.

الأول: من له في العلم ملكة تامة، ودربة كافية، وتجارب وثيقة، وحدس صائب، وفهم ثاقب، فتصانيفهم: عن قوة تبصرة، ونفاذ فكر، وسداد رأي، كالنصير، والعضد، والسند، والسعد، والجلال، وأمثالهم، فإن كلا منهم: يجمع إلى تحرير المعاني، تهذيب الألفاظ، وهؤلاء أحسنوا إلى الناس، كما أحسن الله - سبحانه وتعالى - إليهم، وهذه لا يستغني عنها أحد.

والثاني: من له ذهن ثاقب، وعبارة طلقة، طالع الكتب فاستخرج دررها، وأحسن نظمها، وهذه ينتفع بها المبتدئون والمتوسطون.

ومنهم: من جمع وصنف للاستفادة، لا للإفادة، فلا حجر عليه، بل يرغب إليه إذا تأهل، فإن العلماء قالوا: ينبغي للطالب أن يشتغل بالتخريج والتصنيف فيما فهمه منه، إذا احتاج الناس إليه، بتوضيح عبارته، غير مائل

عن المصطلح، مبينا مشكله، مظهرا ملتبسه، كي يكتسبه جميل الذكر، وتخليده إلى آخر الدهر، فينبغي أن يفرغ قلبه لأجله، إذا شرع، ويصرف إليه كل شغله، قبل أن يمنعه مانع عن نيل ذلك الشرف، ثم إذا تم، لا يخرج ما صنفه إلى الناس، ولا يدعه عن يده، إلا بعد تهذيبه، وتنقيحه، وتحريره، وإعادة مطالعته، فإنه قد قيل: الإنسان في فسحة من عقله، وفي سلامة من أفواه جنسه، ما لم يضع كتابا، أو لم يقل شعرا.

وقد قيل: من صنف كتابا، فقد استشرف للمدح والذم، فإن أحسن، فقد استهدف من الحسد والغيبة، وإن أساء فقد تعرض للشتم والقذف.

قالت الحكماء: من أراد أن يصنف كتابا، أو يقول شعرا، فلا يَدْعُوه العجب به وبنفسه إلى أن ينتحله، ولكن يعرضه على أهله في عرض رسائل، أو أشعار، فإن رأى الأسماع تصغي إليه، ورأى من يطلبه انتحله وادعاه، فليأخذ في غير تلك الصناعة.

تذنيب: ومن الناس من ينكر التصنيف في هذا الزمان مطلقا، ولا وجه لإنكاره من أهله، وإنما يحمله عليه التنافس والحسد الجاري بين أهل الأعصار، ولله در القائل في نظمه (شعر)

قل لمن لا يرى المعاصر شيئا ... ويرى للأوائل التقديما

إن ذاك القديم كان حديثا ... وسيبقى هذا الحديث قديما

واعلم: أن نتائج الأفكار، لا تقف عند حد، وتصرفات الأنظار لا تنتهي إلى غاية، بل لكل عالم ومتعلم منها حظ يحرزه في وقته المقدر له، وليس

لأحد أن يزاحمه فيه، لأن العالم المعنوي واسع كالبحر الزاخر، والفيض الإلهي، ليس له انقطاع ولا آخر، والعلوم منح إلهية، ومواهب صمدانية، فغير مستبعد أن يدخر لبعض المتأخرين، ما لم يدخر لكثير من المتقدمين، فلا تغتر بقول القائل: ما ترك الأول للآخر، بل القول الصحيح الظاهر: كم ترك الأول للآخر، فإنما يستجاد الشيء ويسترذل لجودته ورداءته، لا لقدمه وحدوثه.

ويقال: ليس بكلمة أضر بالعلم من قولهم: ما ترك الأول شيئا، لأنه يقطع الآمال عن العلم، ويحمل على التقاعد عن التعلم، فيقتصر الآخر على ما قدم الأول من الظواهر، وهو خطر عظيم، وقول سقيم، فالأوائل وإن فازوا باستخراج الأصول وتمهيدها، فالأواخر فازوا بتفريع الأصول وتشييدها اهـ.

متى كان بدء تأليف الكتب؟

كان تدوين العلم وتأليف الكتب من أعظم المنن التي امتنّ الله بها على هذه الأمة، إذ به حفظت أصول الشريعة، وصانت الأمة ميراث النبوة من الضياع والنسيان.

ولم يكن التأليف عملاً ابتدعه المتأخرون(١)، بل هو تطور طبيعي

(١) قال العلامة ابن باز رحمه الله في «فتاوى نور على الدرب لابن باز بعناية الطيار» (ص٣١٧): تأليف الكتب وتنظيم الأدلة للرد على الملحدين والخصوم، لا يسمى بدعة، بل هذا مما أمر الله به ورسوله، فهو طاعة لله وليست بدعة، فالكتاب العزيز جاء بالرد على خصوم الإسلام وأعدائه في آيات عظيمات،

للرسالة العلمية التي بدأها الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في نقل العلم وحفظه وتبليغه.

لقد عاشت الأمة في صدر الإسلام تعتمد على الحفظ والرواية والسماع، لأن العرب كانت أمةً أمّية يغلب عليها الاعتماد على الذاكرة، فكان العلماء يروون العلم مشافهةً ويكتبون ما يحتاجون إليه في صحفٍ متفرقةٍ غير مرتبة.

ومع اتساع الدولة الإسلامية، وكثرة الداخلين في الإسلام، ووفاة كثير من الحفّاظ، أحسّ العلماء بخطر اندراس العلم، فبدأت مرحلة الجمع والتدوين المنظَّم حفظًا للسنة والفقه واللغة.

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ «مختصر سيرة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ» (ص٣٢٤):

بدء تأليف الكتب في أيام عمر بن عبد العزيز: كتب إلى أبي بكر بن

وجاءت السنة بذلك في الرد على خصوم الإسلام، وهكذا المسلمون من عهد الصحابة إلى يومنا هذا، اعتنوا بالرد على خصوم الإسلام بما ظهر لهم من كتاب الله، وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وأوضحوا الأدلة ونوعوها، وكل هذا لا يسمى بدعة في الشرع، بل هو قيام بالواجب وجهاد في سبيل الله، وليس ببدعة في حكم الشرع.

وقال العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ «فتاوى نور على الدرب للعثيمين» (٤/ ٢ بترقيم الشاملة آليا):

«من سن في الإسلام سنة حسنة» أي: من سن شيئًا من الوسائل التي يكون فيها تحقيقٌ للمصالح الشرعية، فهذه سنة لا شك. مثلاً سن تأليف الكتب، وتأليف الكتب غير موجود في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام.

حزم بالمدينة: «انظر ما كان من حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فاجمعه، فإني خفت دروس العلم، وذهاب العلماء».

وفي أيام المنصور شرع العلماء في تصنيف كتب التفسير والحديث، فصنف ابن جريج بمكة ومالك بن أنس بالمدينة وأبو عمرو الأوزاعي بالشام وحماد بن سلمة بالبصرة، وسفيان الثوري بالكوفة ومعمر بن المثنى باليمن.

وصنف محمد بن إسحاق المغازي، وصنف أبو حنيفة النعمان بن ثابت الرأي.

وقبل هذا: كان الأئمة يتكلمون من حفظهم ويرون العلم صحفا غير مرتبة، والله سبحانه وتعالى أعلم اهـ.

وجاء في «تفسير مقاتل بن سليمان» (٥/ ٦٨) قال:

والظاهر ان تأليف الكتب لم يكن متداولا بين العرب، نظرا لأنهم أمة أمية تعتمد على الحفظ والرواية والسماع. اهـ.

وجاء في «موطأ ابن وهب الصغير» (م ١/ ١٠) قال:

وكثر تدوين العلم من العربية واللغة، والتاريخ، وأيام الناس، وقبل هذا العصر كان سائر الأمة يتكلمون من حفظهم، أو من صحف غير مرتبة، ولعل أكبر الأسباب في نشاط العلم والتعليم في هذا العصر، هو الاستقرار السياسي، واتساع رقعة بلاد الإسلام، وارتباط المدن والبلدان بقيادة واحدة، وكثرة القضايا، ولكل قضية حكمها، وما يجري فيها فاتسعت

دائرة الفقه والرأي نحو تلك القضايا، وكما قيل: «تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور».

ومن أسباب تلك الحركة العلمية وازدهارها، اعتناء الخلفاء العباسيين في هذا العصر بالعلم وأهله، وتشجيعهم على الجمع والتأليف، وتكريم العلماء، وإعطاء الجوائز على تأليف الكتب.

وأدل دليل على ذلك ما قيل عن المنصور: أنه قيل له ذات يوم، هل بقي من لذات الدنيا شيئا لم تنله؟ قال: بقيت خصلة، أن أقعد في مصطبة وحولي أصحاب الحديث. اهـ.

يدل هذا النقل الجليل على أن التأليف لم يكن أمرًا حادثًا مبتدعًا، بل هو امتداد طبيعي لحفظ الدين وتقييد العلم بعد عصر الرواية الشفوية.

فأول من وجَّه إلى جمع السنة هو الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رحمه الله، وذلك في زمن مبكر من القرن الأول، حين خشي اندراس العلم بوفاة العلماء، فأمر بجمع الحديث وتدوينه، فكان بذلك فاتحة عصر التصنيف.

وهذه المبادرة تعدّ من أعظم المواقف الشرعية في حفظ السنة النبوية، لأنها فتحت الباب لجمع الأحاديث من الصدور إلى السطور.

ثم تتابع العلماء بعد ذلك في تصنيف العلوم وتقريبها للناس، فكان في مكة ابن جريج، وفي المدينة الإمام مالك، وفي الشام الأوزاعي، وفي الكوفة سفيان الثوري، وفي البصرة حماد بن سلمة، وفي اليمن معمر، فكان كل

قطر من أقطار الإسلام يحمل راية التأليف في علمٍ من العلوم، حتى تميّزت الأمصار بمصنفاتٍ كانت اللبنات الأولى لبناء الحضارة الإسلامية.

ويُفهم من كلام مقاتل بن سليمان -السابق- أن الأمة العربية قبل الإسلام كانت تعتمد على الحفظ والسماع، لقلة الكتابة وندرة الدواوين، فلما جاء الإسلام شجّع على القراءة والكتابة ورفع شأن القلم، فانتقل المسلمون من مرحلة الرواية إلى مرحلة التدوين، ومن الاعتماد على الحفظ الفردي إلى حفظ جماعي مكتوب تحفظه الأمة وتورّثه جيلاً بعد جيل.

ثم جاء العصر العباسي فبلغت الحركة العلمية أوجها؛ إذ اتسعت رقعة الدولة، واستقرّ الأمن، وتفرّغ العلماء للبحث والتعليم، وشجّع الخلفاء على التأليف وأكرموا العلماء، حتى غدت المكتبات مراكز إشعاع في بغداد والمدينة ودمشق، وصار العلم صناعة قائمة تُقدَّر فيها الجهود.

فازدهرت علوم الحديث والتفسير واللغة والفقه، وتأسست بها قواعد الأمة العلمية والفقهية التي بقيت حتى اليوم.

فمن تأمل هذه التطورات علم أن التأليف عبادة متسلسلة الجذور، وحلقة من حلقات حفظ الدين، وأن القلم الذي بدأ بحديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ استمرّ أثره حتى نضجت العلوم، وتفرعت الفنون، وصار التأليف فريضةً كفائية في كل زمان.

الباب الأول:
التأليف عبادة ومسؤولية

بعد أن بان فضلُ التأليف في ميزان الشرع، وعُرف قدرُ القلم ومقام الكلمة، وجمالُ أثرها إذا خرجت من قلبٍ صادقٍ وعقلٍ راشد؛ كان من المناسب أن يُبيَّن في المقابل خطرُ التصدّر له بغير عُدّةٍ ولا علمٍ ولا تزكيةٍ من أهل الفضل.

فما كلُّ من قدر على الكتابة أُذن له في التأليف، ولا كلُّ من جمع الأوراق استحقَّ أن يُنسب إلى العلماء.

إن القلم – وإن بدا سهلا في اليد – فهو في حقيقته لسانٌ ناطقٌ باسم العلم والدين، ومن تكلم في العلم بغير علمٍ فقد تكلم على الله بغير علم، وهو من أعظم المزالق وأخطر المهالك.

فما أكثر ما أفسدت العجلةُ أقلامًا، وأضاعت الجرأةُ أقوامًا، فتصدر من لم يتأهل، وكتب من لم يتعلم، فكانت النتيجة فوضى فكرية وعللٌ في التراث الحديث لا دواء لها إلا الرجوع إلى أصول السلف في التأني والتلقي.

ومن لم يتهذّب بطول الطلب ومجالسة الشيوخ، ولم يُزكَّه أهل العلم بالقبول، كان تصدّره قبل التمكن كغرسٍ قبل أوانه لا يثمر، وإن أثمر كان

حامضًا لا يُؤكل.

ولهذا كان من تمام النصيحة للأمة أن يُنبه على هذه الآفة العظيمة التي عمّت في هذا الزمان، حتى صار التأليف عند بعض الناس هوايةً لا عبادة، ووسيلةً للشهرة لا وسيلةً للبلاغ.

ومن هنا جاء هذا الفصل تحذيرًا، وتنبيهًا لطالب العلم على أن الكتابة أمانة، وأن من تصدّر قبل التأهل تعجّل الهوان قبل العز.

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في «مقدمة المجموع شرح المهذب» (١/ ٣٠):

وليحذر كل الحذر أن يشرع في تصنيف ما لم يتأهل له؛ فإن ذلك يضره في دينه وعلمه وعرضه، وليحذر أيضا من إخراج تصنيفه من يده إلا بعد تهذيبه وترداد نظره فيه وتكريره، وليحرص على إيضاح العبارة وإيجازها؛ فلا يوضح إيضاحا ينتهي إلى الركاكة، ولا يوجز إيجازا يفضي إلى المحق والاستغلاق.

وينبغي أن يكون اعتناؤه من التصنيف بما لم يسبق إليه أكثر.

والمراد بهذا أن لا يكون هناك مصنف يغني عن مصنفه في جميع أساليبه، فإن أغنى عن بعضها فليصنف من جنسه ما يزيد زيادات يحتفل بها، مع ضم ما فاته من الأساليب.

وليكن تصنيفه فيما يعم الانتفاع به ويكثر الاحتياج إليه. اهـ

وقال ابن جماعة رَحِمَهُ اللَّهُ في «تذكرة السامع والمتكلم» (ص: ٣٠): ولا يخرج تصنيفه من يده قبل تهذيبه وتكرير النظر فيه. اهـ

الفصل الأول: معنى التأليف لغةً واصطلاحًا:

التأليف في اللغة: مأخوذ من الأُلفة والجمع، يقال: ألَّف الشيءَ إلى الشيء إذا ضمَّه إليه، ومنه قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: ٦٣].

أي جمعتها بعد تفرّقها.

وفي الاصطلاح هو: جمعُ المعاني المتفرقة وترتيبها في نظامٍ علميٍّ يخدم المقصود الشرعي وييسّر الانتفاع به.

الفصل الثاني: فضل الكتابة وشرف التأليف في الإسلام

إن الاشتغال بتأليف الكتب التي تخدم دين الله تعالى سنة جليلة، جاءت الأدلة الشرعية ببيان فضلها وشرفها، لأنها نوع من أنواع حفظ العلم، وصيانة الوحيين من الضياع والنسيان، إذ التأليف امتدادٌ لحفظ نصوص الكتاب والسنة وتدوينها للأجيال.

وقد كان التدوين من أجلّ وسائل حفظ الشريعة، ولذلك حُمد سعي من جمع النصوص وقيد الفوائد ودوّن المسائل، لما في ذلك من بقاء الدين وانتشار العلم.

وأصل هذا الباب ما جاء عن الصحابي الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال:

«كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أُرِيدُ حِفْظَهُ، فَنَهَتْنِي قُرَيْشٌ، وَقَالُوا: أَتَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ تَسْمَعُهُ، وَرَسُولُ اللهِ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بَشَرٌ يَتَكَلَّمُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا، فَأَمْسَكْتُ عَنِ الْكِتَابِ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فَأَوْمَأَ بِإِصْبَعِهِ إِلَى فِيهِ.

فَقَالَ: «اكْتُبْ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلَّا حَقٌّ»(١)

فهذا الحديث أصل في جواز التدوين، بل في استحبابه، وفيه تقرير من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لكتابة العلم وضبطه، وهو الأساس الذي سار عليه العلماء من بعده، فجمعوا السنة، ودوّنوا الفقه، وصنفوا في العقيدة واللغة والتفسير، حتى غدت مؤلفاتهم ذخيرةً للأمة وعمادًا للمعرفة.

وهكذا صار التأليف عملاً تعبديًا، تُراد به وجهة الله، وتُحفظ به معالم الدين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

إن الكتابةَ في الإسلام ليست مجرّد وسيلةٍ للتعبير، بل هي عبادةٌ وقربةٌ إذا صَحّت النيةُ واستقامت المقاصد، فبالقلمِ نُقل الوحيُ إلى الأجيال، وبالكتابةِ حفظت السننُ والأحكام، وسُطرت العلومُ والبيان.

وقد شرف الله تعالى الكتابةَ منذ أولِ لحظةٍ من نزول الوحي، فقال سبحانه: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [سورة العلق:٣-٥].

فابتدأ الوحيُ بالأمرِ بالقراءة، وبيّن أن القلمَ هو أداةُ العلمِ ووسيلةُ

---

(١) رواه أبو داود (٣٦٤٦) وصححه الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها» (٤/ ٤٦) والوادعي في «الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين» (١/ ٦١٩).

حفظه ونشره، فصار شرفُ القلمِ تابعًا لشرفِ ما يُكتبُ به، وشرفُ المؤلفِ تابعًا لصدقِ نيّته فيما يسطر.

وقد كان التأليفُ في الأمةِ الإسلاميةِ من أعظم أبوابِ الجهاد بالعلم، فبالتأليفِ حُفظت العقائدُ من التحريف، والشريعةُ من الاندثار، وانتقلت الحكمةُ من جيلٍ إلى جيلٍ كالمشعل المتقد لا يخبو نوره.

ولم يكن الأوائلُ يرونَ في الكتابةِ رياءً ولا سمعة، بل يعدّونها أمانةً ومسؤولية.

فالتأليفُ في الإسلامِ مظهرُ من مظاهرِ عبوديةِ القلم، وسِياجٌ للعلمِ والفكر، ومنبرٌ للدعوةِ والإصلاح، وبه يخلّدُ اللهُ آثارَ العلماء، ويُبقي لأهلِ الإخلاصِ ذكرًا طيبًا وأجرًا جاريًا إلى يوم الدين.

ومن أوضح ما ورد في الحث على الكتابة قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «قَيِّدُوا العِلمَ بِالكِتَاب»(١)

وهو توجيه نبوي بليغ يدل على أن العلم كالبعير الشارد لا يُحفظ إلا بالتقييد، فكان القلم قيدًا للمعرفة وصيانةً للوحي، وهذا أصل في مشروعية التصنيف والتدوين.

فكل مؤلف صادق يكتب لله إنما يشارك في حفظ ميراث النبوة من الضياع والنسيان، ويقيم الحجة على من بعده بالعلم الموثق.

ومن شواهد فضل التأليف أيضًا ما جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٦١) وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٤٣٤) عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

«إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ، إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»(١)

وهذا الحديث أصل في بقاء أثر العالم بعد موته، فإن ما دوّنه المؤلف في كتابٍ ينتفع به الناس يدخل في هذا الوصف الشريف، لأن أثره متجدد ما دام الكتاب يُقرأ.

فانظر -رحمك الله- كيف جعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ العلم النافع من الأعمال التي يبقى أجرها بعد الموت، وكيف يكون القلم الصادق سببًا في جريان الحسنات إلى يوم الدين.

فما يسطره المؤلفُ من علمٍ ينتفعُ به الخلقُ هو في الحقيقة صدقةٌ جاريةٌ بالقلم، يجري نفعُها وإن بَلِيَ الجسد، وتُكتبُ له بركتُها وإن غابَ الاسم.

فكل كتابٍ يُقرّب الناسَ إلى ربهم، أو يردُّ عنهم شبهةً، أو يهديهم إلى خيرٍ فهو من ميراث الأنبياء، وجزءٌ من رسالتهم التي بلّغوها للعالمين، فيا طوبى لمؤلفٍ أخلصَ نيتَه، وأودعَ في صفحاتِه علمًا نافعًا، فكان قلمُه بعد موته لسانًا ينطق بالخير عنه في صحائف أعماله.

ولهذا قيل: التأليف صدقة جارية بمداد العلم لا بالمال، يبقى نفعها ما بقيت الأمة تنتفع بعلمه.

---

(١) رواه مسلم (١٦٣١).

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ في «صيد الخاطر» (ص٣٤):

فإذا علم الإنسان -وإن بالغ في الجد- بأن الموت يقطعه عن العمل، عمل في حياته ما يدون له أجره بعد موته: فإن كان له شيء من الدنيا، وقف وقفًا، وغرس غرسًا، وأجرى نهرًا، ويسعى في تحصيل ذرية تذكر الله بعده، فيكون الأجر له، أو أن يصنف كتابًا في العلم؛ فإن تصنيف العالم ولده المخلد، وأن يكون عاملًا بالخير، عالمًا فيه، فينقل من فعله ما يقتدي الغير به؛ فذلك الذي لم يمت.

..... قَدْ مَاتَ قَوْمٌ وَهُمْ فِي النَّاسِ أحياءُ(١)

وجاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

«مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا»(٢)

والمؤلف حين ينشر كتابًا نافعًا، أو يبيّن منهج الحق في مؤلفه، فقد دعا إلى هدى بلسان القلم، فكان له مثل أجور من اهتدى بهديه وانتفع بعلمه، فتتحول سطوره إلى سُبُلٍ من نورٍ تمشي بين الناس ما داموا يقرؤونها.

ومن عظيم التكليف ما جاء عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال:

«بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ

(١) أول البيت: مَوْتُ التَّقِيِّ حَيَاةٌ لَا نَفَادَ لَهَا.

(٢) رواه مسلم (٢٦٧٦).

مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»(١)

وهذا البلاغ لا يختص باللسان، بل يشمل ما يُنقل بالبنان، فالمؤلف مبلّغٌ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بمداده، يؤدي رسالة الأنبياء بالكلمة المكتوبة، والآية الواحدة إذا دوّنها المؤلف وفسرها وقرّب معناها، كان مبلغًا لحقائق الوحي، داخلًا في عموم الخطاب النبوي.

والكتابةُ في العلمِ أمانةٌ عظيمة، لا ينهضُ بها إلا من عرفَ قَدْرَ الكلمةِ ومسؤوليةَ البيان.

فالقلمُ شاهدٌ لصاحبه أو عليه، يسطرُ ما في قلبه، ويُفضحُ بما في نيّته، فمن كتبَ حقًّا وصدقًا كان قلمُه نورًا يسعى بين يديه يوم القيامة، ومن حرّف أو غشَّ أو زيَّفَ؛ كان قلمُه شاهدًا عليه بالإثم والعدوان.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصافات: ٢٤].

فكلُّ كلمةٍ ستُسأل عنها، وكلُّ علمٍ سيُحاسَب عليه صاحبُه؛ أأدّاه لله أم لبريق الدنيا وزخرفها؟

وعن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ:

«إِنَّهَا أَمَانَةٌ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا»(٢)

فمن تصدّر للتأليف، فقد تقلّد أمانةً ثقيلة، ومن خطَّ حرفًا في العلم فقد حمَل وزرَه أو أجرَه.

---

(١) رواه البخاري (٣٤٦١).

(٢) رواه مسلم (١٨٢٨).

فليتّقِ اللهَ المؤلف، ولينظر قبل أن يكتب، أهو يبتغي وجهَ الله أم ثناءَ الناس؟

فإن الكلمةَ إذا خرجت من غير نيةٍ صالحةٍ صارت حجةً على صاحبها، وإن خرجت بصدقٍ واحتسابٍ كانت له نورًا ورفعةً يوم يقوم الناس لرب العالمين

فليستحضر كل ومؤلف أنه ما من مدادٍ يُسطر في العلم إلا ويُسأل صاحبه: لِمَ كتبت؟ ولمن كتبت؟ وكيف كتبت؟

إنَّ الكلمةَ التي يقولها المسلم بلسانه أو كانت من مكتوبه في ميزان الإسلام ليست صوتًا عابرًا، ولا حبرًا على ورق، بل هي أمانةٌ تُكتب، وموقفٌ يُسجَّل، وحقيقةٌ يُسأل عنها العبد يوم العرض الأكبر.

فكم من كلمةٍ أحيت قلبًا غافلًا، وكم من أخرى أضلّت أمةً أو أفسدت فكرًا.

قال الله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٨].

فكلُّ لفظٍ محسوب، وكلُّ معنى مكتوب، وما يسطره المؤلف في علمه أو دعوته إنما هو شاهدٌ عليه في ميزانه.

والشريعةُ المطهّرةُ عظّمت شأن الكلمة، حتى جعلت القولَ الموزونَ عبادةً، واللفظَ المنحرفَ معصيةً، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ:

«وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ

أَلْسِنَتِهِمْ»(١)

وإذا كان هذا في اللسان المنطوق، فكيف بالكلمة المكتوبة التي تبقى بعد موت صاحبها وتنتشر في الآفاق؟! فكلُّ مؤلفٍ يخطّ حرفًا يفتحُ به بابَ هدى أو ضلالٍ إنما يخلّد أثرَه في صحائفِ عمله إلى يوم الدين.

لهذا وجب على الكاتب أن يزن كلماته قبل أن يسطّرها، وأن يجعلَ ميزانَ التقوى حاكمًا على أفكاره، وأن يستحضرَ أنه في كل ما يكتبُ إمّا مأجورٌ أو مأزور، فالسطرُ عند الله شاهدٌ لا يُمحى، والنيةُ هي الفارقُ بين قلمٍ في الجنة وآخرَ في النار.

من أدلة مشروعية التأليف والكتابة إقرار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ للكتابة ما جاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ خطب...فذكر القصة، فَقَامَ أَبُو شَاهٍ، رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ، فَقَالَ: اكْتُبُوا لِي يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «اكْتُبُوا لِأَبِي شَاهٍ»(٢).

وهذا الحديث أصلٌ عظيم في مشروعية تقييد العلم بالكتابة، وفيه إقرارٌ نبويّ على تدوين ما يُنتفع به من السنة والعلم، وأن الكتابة وسيلةٌ لحفظ البيان النبوي من الضياع.

ففيه دليل على جواز كتابة العلم، بل استحبابها، وصيانته من النسيان، وإيصاله لمن بعدنا.

---

(١) رواه الترمذي (٢٦١٦) عن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وصححه الإمام الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣/ ٨٩).

(٢) رواه البخاري (١١٣) ومسلم (١٣٥٥)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

«إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَرْفَعُ اللهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ»(١)

فشرف القلم إنما هو بشرف ما يُسطر به، وكمالُ الكلمةِ في صدقِ مقصدها وإخلاصِ قائلها، ومن جمع بين صدق النية وحسن البيان كتب الله له بركةَ القلم ونفعَ الكلمة إلى أن يرث الأرض ومن عليها.

ومن هذا المنطلق كان التأليف في الإسلام امتدادًا لأمرٍ نبويٍّ كريمٍ، ومظهرًا من مظاهر حفظ الدين ونقله، ولهذا كان أول ما أُمر به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في الوحي هو القراءة كما تقدم قول الله: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾.

فهي إشارة إلى أن العلم والكتابة والقراءة طريقٌ واحد لخدمة هذا الدين.

فهذه النصوص تدل على أن التأليف عبادة عظيمة، ووسيلة لحفظ الدين ونشر الهداية، وأنها داخلة في عموم قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «أَوْ عِلْمٍ يُنتفع به»، إذ التأليف علمٌ موثَّق، وعملٌ متعدٍّ، وأثره جارٍ لا ينقطع، وهو ميراث العلماء الذين ورثوا عن الأنبياء مهمة البيان والتعليم.

قال تعالى: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ

(١) رواه البخاري (٦٤٧٨) ومسلم (٢٩٨٨).

وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ۚ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾

[سورة النور:٥٤].

ومن بلّغ العلم باللسان أو بالقلم فقد نال نصيبه من هذا البلاغ الشريف، على قدر إخلاصه وصدقه ونفعه لعباد الله.

الفصل الثالث: من كلام العلماء في شأن التأليف

قال السخاوي رحمه الله في «فتح المغيث بشرح ألفية الحديث» (٣/ ٣١٨):

وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ التَّاجِ السُّبْكِيِّ: الْعَالِمُ وَإِنِ امْتَدَّ بَاعُهُ، وَاشْتَدَّ فِي مَيَادِينِ الْجِدَالِ دِفَاعُهُ، وَاسْتَدَّ سَاعِدُهُ حَتَّى خَرَقَ بِهِ كُلَّ سَدٍّ سَدَّ بَابَهُ، وَأَحْكَمَ امْتِنَاعَهُ، فَنَفْعُهُ قَاصِرٌ عَلَى مُدَّةِ حَيَاتِهِ، مَا لَمْ يُصَنِّفْ كِتَابًا يَخْلُدُ بَعْدَهُ، أَوْ يُورِقْ عِلْمًا يَنْقُلُهُ عَنْهُ تِلْمِيذٌ إِذَا وَجَدَ النَّاسُ فَقْدَهُ، أَوْ تَهْتَدِي بِهِ فِئَةٌ مَاتَ عَنْهَا وَقَدْ أَلْبَسَهَا بِهِ الرَّشَادَ بُرْدُهُ، وَلَعَمْرِي إِنَّ التَّصْنِيفَ لَأَرْفَعُهَا مَكَانًا؛ لِأَنَّهُ أَطْوَلُهَا زَمَانًا، وَأَدْوَمُهَا إِذَا مَاتَ أَحْيَانًا.

وَلِذَلِكَ لَا يَخْلُو لَنَا وَقْتٌ يَمُرُّ بِنَا خَالِيًا عَنِ التَّصْنِيفِ، وَلَا يَخْلُو لَنَا زَمَنٌ إِلَّا وَقَدْ تَقَلَّدَ عُقُدَهُ جَوَاهِرَ التَّأْلِيفِ، وَلَا يَجْلُو عَلَيْنَا الدَّهْرُ سَاعَةَ فَرَاغٍ إِلَّا وَنُعْمِلُ فِيهَا الْقَلَمَ بِالتَّرْتِيبِ وَالتَّرْصِيفِ. اهـ.

وقال الخطيب رحمه الله في «تقييد العلم» (ص: ١١٨):

وَالْكِتَابُ قَدْ يَفْضُلُ صَاحِبَهُ وَيَرْجِعُ عَلَى وَاضِعِهِ بِأُمُورٍ مِنْهَا: أَنَّ الْكِتَابَ يُقْرَأُ بِكُلِّ مَكَانٍ، وَيَظْهَرُ مَا فِيهِ عَلَى كُلِّ لِسَانٍ، وَمَوجُودٌ فِي كُلِّ زَمَانٍ مَعَ

تَفَاوُتِ الْأَعْصَارِ وَبَعْدِ مَا بَيْنَ الْأَمْصَارِ وَذَلِكَ أَمْرٌ مُسْتَحِيلٌ فِي وَاضِعِ الْكِتَابِ، وَالْمُنَازِعِ بِالْمَسْئَلَةِ وَالْجَوَابِ وَقَدْ يَذْهَبُ الْعَالِمُ وَتَبْقَى كُتُبُهُ، وَيَفْنَى الْعَقْلُ وَيَبْقَى أَثَرُهُ، وَلَوْلَا مَا رَسَمَتْ لَنَا الْأَوَائِلُ فِي كُتُبِهَا، وَخَلَّدَتْ مِنْ فُنُونِ حِكَمِهَا، وَدَوَّنَتْ مِنْ أَنْوَاعِ سِيَرِهَا، حَتَّى شَاهَدْنَا بِذَلِكَ مَا غَابَ عَنَّا، وَأَدْرَكْنَا بِهِ مَا بَعُدَ مِنَّا، وَجَمَعْنَا إِلَى كَثِيرِهِمْ قَلِيلَنَا، وَإِلَى جَلِيلِهِمْ يَسِيرَنَا، وَعَرَفْنَا مَا لَمْ نَكُنْ لِنَعْرِفَهُ إِلَّا بِهِمْ، وَبَلَغْنَا الْأَمَدَ الْأَقْصَى بِقَرِيبِ رُسُومِهِمْ، إِذًا لَخَسِرَ طُلَّابُ الْحِكْمَةِ، وَأَنْقَطَعَ سَبَبُهُمْ عَنِ الْمَعْرِفَةِ، وَلَوْ أُلْجِئْنَا إِلَى مَدَى قُوَّتِنَا وَمَبْلَغِ مَا تَقْدِرُ عَلَى حِفْظِهِ خَوَاطِرُنَا، وَتَرَكْنَا مَعَ مُنْتَهَى تِجَارَتِنَا، لِمَا أَدْرَكَتْهُ حَوَاسُّنَا، وَشَاهَدَتْهُ نُفُوسُنَا، لَقَلَّتِ الْمَعْرِفَةُ، وَقَصُرَتِ الْهِمَّةُ، وَضَعُفَتِ الْمِنَّةُ، وَمَاتَتِ الْخَوَاطِرُ وَتَبَلَّدَ الْعَقْلُ وَنَقَصَ الْعِلْمُ، فَكَانَ مَا دُونَهُ فِي كُتُبِهِمْ أَكْثَرَ نَفْعًا وَمَا تَكَلَّفُوهُ مِنْ ذَلِكَ أَحْسَنَ مَوْقِعًا وَيَجِبُ الِاقْتِفَاءُ لِآثَارِهِمْ وَالِاسْتِضَاءُ بِأَنْوَارِهِمْ فَإِنَّ الْمَرْءَ مَعَ مَنْ أَحَبَّ، وَلَهُ أَجْرُ مَا احْتَسَبَ. اهـ.

وقال الصفدي رَحِمَهُ اللَّهُ في «الشعور بالعور» (ص٣٩):

التصنيف فن لَا يمله من اعتاده وَلَا يلتذه إِلَّا من اشْترى لَهُ سهره وَبَاعَ فِيهِ رقاده وَلَا يأنس بِهِ فِي طول أَسْفَاره إِلَّا من وثق بِمَا مَعَه من الزوادة.

تغر حلاوات النُّفُوس قلوبها فتستعذب اللَّذَّات وَهِي حمام

وَهُوَ شغل للنَّفس عَمَّا يعرض لَهَا من هموم هَذِه الدَّار ومطل يدافع بصفوه مَا تحدثه الْآفَات من الأكدار وَسَهل يرتاح الْقلب إِلَيْهِ إِذا اضطرته إِلَى حزنها الأقدار اهـ.

وقال الجاحظ رَحِمَهُ اللَّهُ في «البيان والتبيين» (١/ ٨٥):

وَالْقَلَمِ وَما يَسْطُرُونَ ولذلك قالوا: القلم أحد اللسانين، كما قالوا: قلة العيال أحد اليسارين، وقالوا: القلم أبقى أثرا، واللسان أكثر هذرا.

وقال عبد الرحمن بن كيسان:

استعمال القلم أجدر أن يحض الذهن على تصحيح الكتاب، من استعمال اللسان على تصحيح الكلام.

وقالوا: اللسان مقصور على القريب الحاضر، والقلم مطلق في الشاهد والغائب، وهو للغابر الحائن، مثله للقائم الراهن.

والكتاب يقرأ بكل مكان، ويدرس في كل زمان، واللسان لا يعدو سامعه، ولا يتجاوزه إلى غيره. اهـ.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ:

رأيت من الرأي القويم أن نفع التصانيف أكثر من نفع التعليم بالمشافهة؛ لأني أشافه في عمري عددًا من المتعلمين، وأشافه بتصنيفي خلقًا لا تحصى ما خلقوا بعد، ودليل هذا أن انتفاع الناس بتصانيف المتقدمين أكثر من انتفاعهم بما يستفيدونه من مشايخهم.

فينبغي للعالم أن يتوفر على التصانيف إن وفق للتصنيف المفيد؛ فإنه ليس كل من صنف صنف، وليس المقصود جمع شيء كيف كان، وإنما هي أسرار يطلع الله -عز وجل- عليها من شاء من عباده، ويوفقه لكشفها، فيجمع ما فرق، أو يرتب ما شتت، أو يشرح ما أهمل، هذا هو التصنيف المفيد.

وينبغي اغتنام التصنيف في وسط العمر؛ لأن أوائل العمر زمن الطلب، وآخره كلال الحواس.

وربما خان الفهم والعقل من قدر عمره؛ وإنما يكون التقدير على العادات الغالبة؛ لأنه لا يعلم الغيب.

فيكون زمان الطلب والحفظ والتشاغل إلى الأربعين.

ثم يبتدئ بعد الأربعين بالتصانيف والتعليم، هذا إذا كان قد بلغ مع ما يريد من الجمع والحفظ، وأعين على تحصيل المطالب.

فأما إذا قلت الآلات عنده من الكتب، أو كان في أول عمره ضعيف الطلب، فلم ينل ما يريده في هذا الأوان، أخر التصانيف إلى تمام خمسين سنة، ثم ابتدأ بعد الخمسين في التصنيف والتعليم إلى رأس الستين.

ثم يزيد فيما بعد الستين في التعليم، ويسمع الحديث والعلم، ويقلل التصانيف إلا أن يقع مهم إلى رأس السبعين.

فإذا جاوز السبعين، جعل الغالب عليه ذكر الآخرة والتهيؤ للرحيل، فيوفر نفسه على نفسه، إلا من تعليم يحتسبه، أو تصنيف يفتقر إليه؛ فذلك أشرف العدد للآخرة.

ولتكن همته في تنظيف نفسه، وتهذيب خلاله، والمبالغة في استدراك زلاته، فإن اختطف في خلال ما ذكرناه، فـ«نية المؤمن خير من عمله»، وإن بلغ إلى هذه المنازل، فقد بينا ما يصلح لكل منزل. اهـ.

قلت: سبحان الله قد كان ابن الجوزي عظيم الاهتمام بجانب التأليف، جاء في ذيل طبقات الحنابلة - لابن رجب» (١/ ٤١٥ ت الفقي) قال:

قال الإمام أبو العباس ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ فى «أجوبته المصرية»:

كان الشيخ أبو الفرج مفتيا كثير التصنيف والتأليف، وله مصنفات فى أمور كثيرة، حتى عددتها فرأيتها أكثر من ألف مصنف، ورأيت بعد ذلك له ما لم أره. اهـ.

وجاء في «ذيل طبقات الحنابلة - لابن رجب» (١/ ٤٢١ ت الفقي):

قال الحافظ الذهبى رَحِمَهُ اللَّهُ: ما علمت أن أحدا من العلماء، صنف ما صنف هذا الرجل. اهـ.

ومن هذا الباب أيضًا شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ، فقد بلغ في باب التصنيف مبلغًا عجيبًا، حتى **قال ابن رجب** رَحِمَهُ اللَّهُ في «التاج المكلل» (ص ٤٢٠):

وأما تصانيفه فهي أشهر من أن تذكر، وأعرف من أن تنكر، سارت مسير الشمس في الأقطار، وامتلأت بها البلاد والأمصار، قد جاوزت حد الكثرة، فلا يمكن أحدًا حصرها، ولا يتسع هذا المكان لعد المعروف منها».

وكذا تلميذه الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ، الذي كان يرى القلم أداةً للدعوة ووسيلةً لتربية القلوب والعقول، فصنّف التصانيف البديعة التي جمعت بين العلم والروح والبيان.

ومن نظر في آثارهم علم أن التأليف لم يكن عندهم رياضةَ قلمٍ ولا حبَّ ظهور، بل عبادةٌ خفيةٌ، وجهادٌ علميٌّ ممتدٌّ، لا يبتغون به إلا وجه الله.

وقد سار على نهجهم العلماءُ من بعدهم، فخلّد الله آثارهم في الأرض،

ورفع ذكرهم في الصدور، وجعل أقلامهم ألسنةً ناطقةً بالهدى والحق عبر القرون.

الفصل الرابع: آفة التصدر للتأليف قبل التمكن:

قال إمام الحرمين الجويني رحمه الله في كتاب «غياث الأمم في التياث الظلم» (ص١٥٧):

فَلَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ يَسْتَجِيزُ التَّصَدِّي لِلتَّصْنِيفِ مَنْ هَذَا مُنْتَهَى فَهْمِهِ وَمَبْلَغُ عِلْمِهِ؟، وَمَنِ اسْتَجْرَأَ عَلَى تَأْلِيفِ الْكُتُبِ تَعْوِيلًا عَلَى ذَرَابَةٍ فِي عَذَبَةِ لِسَانِهِ، وَاسْتِمْكَانِهِ مِنْ طَرَفٍ مِنَ الْبَسْطِ فِي بَيَانِهِ، وَلَمْ يَكُنْ بَحْرًا مَعْلُومًا فِي الْعُلُومِ لَا يُنْكَشُ، وَلَا يُغَضْغَضُ، وَنَهْرًا مَعْدُودًا لَا يُنْزَفُ وَلَا يُمْخَضُ، فَقَدْ تَهَدَّفَ فِيمَا صَنَّفَ، وَاقْتَحَمَ الْمَهَاوِي وَتَعَسَّفَ، وَلَسْتُ - وَاللهِ - فِي ذَلِكَ أَتَغَلَّبُ وَأَتَصَلَّفُ اهـ.

يقول الإمام الجويني -متعجبًا ومستنكِرًا حالَ من يتصدر للتأليف قبل أن يرسخ في العلم-:

«فليت شعري كيف يستجيز التصدي للتصنيف من هذا منتهى فهمه ومبلغ علمه؟»

أي: يا ليتني أعلم كيف يجرؤ على تأليف الكتب من لم يبلغ في العلم مبلغًا راسخًا، ولا وصل إلى فهمٍ عميقٍ يؤهله للكلام في المسائل! كيف يسوغ له أن يضع كتابًا يُنسب إليه وهو لا يزال في أول الطريق، لم يُحكِم أصول العلم ولا فروعه؟

«ومن استجرأ على تأليف الكتب تعويلًا على ذَرابةٍ في عَذَبةِ لسانه، واستِمكانه من طرفٍ من البسط في بيانه».

أي: ومن تجرأ على التأليف معتمدًا فقط على فصاحة لسانه، وبلاغة عبارته، وحُسن أسلوبه، وظنَّ أن البيان وحده يكفيه دون العلم، وأن جزالة ألفاظه تغنيه عن التحقيق والدليل، فهذا قد أخطأ الطريق؛ إذ العلم لا يقوم على الزخرف اللفظي ولا على حلاوة الأسلوب، وإنما على الفهم والدراية والأمانة.

«ولم يكن بحرًا معلومًا في العلوم لا يُنكش ولا يُغضغَض، ونهرًا معدودًا لا يُنزف ولا يُمخَض».

أي: ومن لم يكن عالمًا واسع الاطلاع في العلوم، راسخ القدم فيها، لا يستطيع أحد أن يقدح في علمه أو ينقص من رسوخه، ولم يكن من العلماء الكبار الذين يُرجع إليهم ويُقتبس من بحورهم، فكيف له أن يضع للناس كتبًا في الدين يُقتدى بها؟ إن هذا في الحقيقة تهوّر عظيم.

«فقد تَهَدَّفَ فيما صنّف، واقتحم المهاوي وتعسّف»

أي: فإنه قد عرض نفسه للسهام، وجعل كتابه هدفًا للرد والنقد، وسلك طريقًا خطرًا فيه مهالك، واقتحم ميدانًا ليس له فيه أهلية ولا عدة.

«ولستُ – والله – في ذلك أتغلب وأتصلّف»

أي: ولست أقول هذا تكبّرًا أو تعاليًا، ولا أريد بذلك أن أُظهر نفسي أو أحتقر غيري، وإنما هو النصح والتحذير من أن يتجرأ من لا يملك أدوات العلم على التصنيف والتعليم.

فمعنى كلام الإمام الجويني رحمه الله:

أنه لا يليق بطالب العلم أن يضع القلم في ميدان التأليف حتى يتأهل لذلك تأهيلاً تامًّا، ويتبحر في الفنون، ويكتسب أدوات النظر، ويتقن مناهج العلماء.

فالتأليف قبل النضج نوع من الجرأة على الدين، وتضييع للأمانة العلمية، لأن القارئ يظن أنه أمام كلامٍ لمجتهدٍ محقق، بينما هو من مقلدٍ لم يُحسن الفهم بعد.

قال النووي رحمه الله في «مقدمة المجموع شرح المهذب» (١/ ٣٠):

وليحذر كل الحذر أن يشرع في تصنيف ما لم يتأهل له؛ فإن ذلك يضره في دينه وعلمه وعرضه، وليحذر أيضا من إخراج تصنيفه من يده إلا بعد تهذيبه وترداد نظره فيه وتكريره، وليحرص على إيضاح العبارة وإيجازها؛ فلا يوضح إيضاحا ينتهي إلى الركاكة، ولا يوجز إيجازا يفضي إلى المحق والاستغلاق.

وينبغي أن يكون اعتناؤه من التصنيف بما لم يسبق إليه أكثر.

والمراد بهذا أن لا يكون هناك مصنف يغني عن مصنفه في جميع أساليبه، فإن أغنى عن بعضها فليصنف من جنسه ما يزيد زيادات يحتفل بها، مع ضم ما فاته من الأساليب.

وليكن تصنيفه فيما يعم الانتفاع به ويكثر الاحتياج إليه. اهـ

وقال ابن جماعة رحمه الله في «تذكرة السامع والمتكلم» (ص: ٣٠): ولا يخرج تصنيفه من يده قبل تهذيبه وتكرير النظر فيه. اهـ

والخلاصة:

أن التصدر للتأليف قبل التمكّن من أدوات العلم آفةٌ خطيرة أفسدت على الناس أفهامهم، وأحدثت في العلم فوضى فكرية.

فالقلم أمانة لا يحملها إلا من تأهل لها، والكتابة في الدين توقيع عن رب العالمين، ومن تصدّر قبل أوانه فقد تعجّل هوانه.

فعن عَبْدِ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

«إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَتْرُكْ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا، وَأَضَلُّوا»(١)

وهذا الحديث أصلٌ في التحذير من تصدّر الجهّال، فإن الفتوى والكتابة سواء في كونها بيانًا عن دين الله، ومن كتب بغير علمٍ فقد أضل وأُضِلّ، وكان سببًا في نشر الجهل بدل الهدى.

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «إعلام الموقعين عن رب العالمين» (١/ ٣١ ط العلمية):

فَصْلٌ الْمُحَرَّمَاتُ عَلَى أَرْبَعِ مَرَاتِبَ، وَقَدْ حَرَّمَ اللهُ سُبْحَانَهُ الْقَوْلَ عَلَيْهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ فِي الْفُتْيَا وَالْقَضَاءِ، وَجَعَلَهُ مِنْ أَعْظَمِ الْمُحَرَّمَاتِ، بَلْ جَعَلَهُ فِي الْمَرْتَبَةِ الْعُلْيَا مِنْهَا.

---

(١) رواه البخاري (١٠٠) ومسلم (٢٦٧٣).

فَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣].

فَرَتَّبَ الْمُحَرَّمَاتِ أَرْبَعَ مَرَاتِبَ، وَبَدَأَ بِأَسْهَلِهَا وَهُوَ الْفَوَاحِشُ، ثُمَّ ثَنَّى بِمَا هُوَ أَشَدُّ تَحْرِيمًا مِنْهُ وَهُوَ الْإِثْمُ وَالظُّلْمُ، ثُمَّ ثَلَّثَ بِمَا هُوَ أَعْظَمُ تَحْرِيمًا مِنْهُمَا وَهُوَ الشِّرْكُ بِهِ سُبْحَانَهُ، ثُمَّ رَبَّعَ بِمَا هُوَ أَشَدُّ تَحْرِيمًا مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ وَهُوَ الْقَوْلُ عَلَيْهِ بِلَا عِلْمٍ، وَهَذَا يَعُمُّ الْقَوْلَ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ بِلَا عِلْمٍ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ وَفِي دِينِهِ وَشَرْعِهِ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [النحل: ١١٦-١١٧]

فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ سُبْحَانَهُ بِالْوَعِيدِ عَلَى الْكَذِبِ عَلَيْهِ فِي أَحْكَامِهِ، وَقَوْلِهِمْ لِمَا لَمْ يُحَرِّمْهُ: هَذَا حَرَامٌ، وَلِمَا لَمْ يَحِلَّهُ: هَذَا حَلَالٌ، وَهَذَا بَيَانٌ مِنْهُ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلْعَبْدِ أَنْ يَقُولَ: هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ إِلَّا بِمَا عَلِمَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ أَحَلَّهُ وَحَرَّمَهُ.

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: لِيَتَّقِ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقُولَ: أَحَلَّ اللهُ كَذَا، وَحَرَّمَ كَذَا، فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: كَذَبْت، لَمْ أُحِلَّ كَذَا، وَلَمْ أُحَرِّمْ كَذَا؛ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَقُولَ لِمَا لَا يَعْلَمُ وُرُودَ الْوَحْيِ الْمُبِينِ بِتَحْلِيلِهِ وَتَحْرِيمِهِ أَحَلَّهُ اللهُ وَرَحِمَهُ اللهُ لِمُجَرَّدِ التَّقْلِيدِ أَوْ بِالتَّأْوِيلِ اهـ.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال:

«مَنْ أَفْتَى بِغَيْرِ عِلْمٍ كَانَ إِثْمُهُ عَلَى مَنْ أَفْتَاهُ»(١)

فما أعظمها من مسؤولية! فالذي يألف في الدين بغير علم كالمفتي بغير علم، كلاهما يُحمّل وزر من تبعه، ويكون عليه إثم من أضلهم بقلمه أو قوله، فالقلم هنا فتوى مكتوبة تُنشر في الناس.

والتأليف لا يُطلب بالعجلة ولا بالتسرع، وإنما هو ثمرة رسوخٍ وصبرٍ وطول مِران. والعجلة في الكتابة دون تمحيصٍ تورث الزلل، والتأني فيها بركة وهداية. فمن أراد بركة التأليف فليتأنَّ، وليعرض علمه على أهل الرسوخ قبل أن يُخرجه للناس.

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال:

«هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ قَالَهَا ثَلَاثًا»(٢)

والتنطع في العلم يشمل التكلّف في القول والادعاء في الكتابة، وكم من مؤلفٍ دخل هذا الباب حين كتب فيما لا يحسن، فتكلّف التعليل والتوجيه بغير برهان، فوقع في التنطع المذموم، وضاع منه الإخلاص والاتزان.

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ:

«إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ، وَيَثْبُتَ الْجَهْلُ، وَيُشْرَبَ الْخَمْرُ، وَيَظْهَرَ الزِّنَا»(٣)

---

(١) رواه أبو داود (٣٦٥٧) وحسنه الألباني في «صحيح الجامع الصغير وزيادته» (٢/ ١٠٤٨)

(٢) رواه مسلم (٢٦٧٢).

(٣) رواه البخاري (٨٠) ومسلم (١٦٧)

ورفع العلم لا يكون فقط بموت العلماء، بل أيضًا بتصدّر من ليس من أهل العلم، فيملأ الساحة بكتبٍ سطحيةٍ ومؤلفاتٍ لا رسوخ فيها، فتغطي على تراث المحققين، فيظن الناس أن العلم كلامٌ منمق لا تحقيق فيه.

وفي حديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»(١)

فما بال من يكتب في الدين بلا تحقيق ولا توثيق، فينسب الأقوال إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أو العلماء بغير تثبت! إن خطره أعظم من الكاذب، لأنه يكسو الكذب ثوب العلم ويجعله مؤصّلًا، فكم أُفسدت كتبٌ بأحاديث موضوعة أو منقولة خطأ.

ولهذا قيل: من أجاب في مسألةٍ وهو يجهلها فقد أتى بابًا من أبواب جهنم.

فكيف بمن كتب في عشرات المسائل بلا علمٍ ولا تأصيل؟!

وقيل أيضا: «من تعلّم العلم قبل أن يتأدّب فقد تفلّت من العلم».

فما ظنك بمن ألّف قبل أن يتعلم؟! ذلك الذي جمع بين العجلة والغرور، فكانت كتبه شاهدًا على جهله، وندمًا بعد موته.

فالحذر الحذر من الكتابة قبل النضج، فإن القلم شهادة، والمؤلف في حكم المفتي، وكلاهما يوقّع عن الله.

قال ابن القيم في «إعلام الموقعين عن رب العالمين» (٤/ ١٤٤ ط

---

(١) رواه البخاري (١٠٧) ورواه مسلم (٣).

العلمية):

فَخَطَرُ الْمُفْتِي عَظِيمٌ، فَإِنَّهُ مُوَقِّعٌ عَنْ اللهِ وَرَسُولِهِ، زَاعِمٌ أَنَّ اللهَ أَمَرَ بِكَذَا وَحَرَّمَ كَذَا أَوْ أَوْجَبَ كَذَا. اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في «إعلام الموقعين عن رب العالمين» (١/ ٢٧ ط العلمية):

وَكَانَ السَّلَفُ مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ يَكْرَهُونَ التَّسَرُّعَ فِي الْفَتْوَى، وَيَوَدُّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنْ يَكْفِيَهُ إيَّاهَا غَيْرُهُ: فَإِذَا رَأَى بِهَا قَدْ تَعَيَّنَتْ عَلَيْهِ بَذَلَ اجْتِهَادَهُ فِي مَعْرِفَةِ حُكْمِهَا مِنْ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَوْ قَوْلِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ ثُمَّ أَفْتَى.

وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُبَارَكِ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنْ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى قَالَ: أَدْرَكْت عِشْرِينَ وَمِائَةً مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -، أَرَاهُ قَالَ فِي الْمَسْجِدِ، فَمَا كَانَ مِنْهُمْ مُحَدِّثٌ إلَّا وَدَّ أَنَّ أَخَاهُ كَفَاهُ الْحَدِيثَ، وَلَا مُفْتٍ إلَّا وَدَّ أَنَّ أَخَاهُ كَفَاهُ الْفُتْيَا اهـ.

وقال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في «المجموع شرح المهذب» (١/ ٤٠ ط المنيرية):

وَعَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ وَسَحْنُونٍ أَجْسَرُ النَّاسِ عَلَى الْفُتْيَا أَقَلُّهُمْ عِلْمًا.

وجاء في «سير أعلام النبلاء- ط الرسالة» (٤/ ٦١٢): قال حُذَيْفَةُ:

إِنَّمَا يُفْتِي النَّاسَ أَحَدُ ثَلَاثَةٍ: مَنْ يَعْلَمُ مَا نُسِخَ مِنَ القُرْآنِ.

قَالُوا: وَمَنْ يَعْلَمُ مَا نُسِخَ مِنَ القُرْآنِ؟

قَالَ: عُمَرُ، أَوْ أَمِيْرٌ لَا يَجِدُ بُدّاً، أَوْ أَحْمَقُ مُتَكَلِّفٌ.

ثُمَّ قَالَ ابْنُ سِيْرِيْنَ: وَلَسْتُ بِوَاحِدٍ مِنْ هَذَيْنِ، وَلَا أُحِبُّ أَنْ أَكُوْنَ الثَّالِثَ اهـ.

ومن لم يتأهل للتأليف، فليعدّ نفسه في عداد المتعالمين لا المعلّمين، وليعلم أن الصمت في طلب العلم خيرٌ له من الكتابة بغير علم، فإن التريث عبادة، والعجلة في العلم فتنة.

وقد كان السلف يهابون القول قبل التثبت، فكيف بالتصنيف!

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ في «صفة الصفوة» (١/ ٣٩٦):

وعن أبي مصعب قال سمعت مالك بن انس رَحِمَهُ اللَّهُ يقول ما أفتيت حتى شهد لي سبعون أني أهل لذلك.

وعنه قال ما أحببت في الفتيا حتى سألت من هو أعلم مني هل يراني موضعا لذلك سألت ربيعة وسألت يحيى بن سعيد فأمراني بذلك فقلت يا أبا عبد الله فلو نهاك قال كنت انتهي لا ينبغي للرجل أن يرى نفسه أهلا لشيء حتى يسأل من هو أعلم منه.

وقال خلف: دخلت على مالك بن أنس فقال لي انظر ما تحت مصلاي أو حصيري فنظرت فإذا بكتاب فقال أقراه فإذا فيه رؤيا رآها له بعض إخوانه فقال رأيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في المنام في مسجده وقد اجتمع الناس عليه فقال لهم أني قد خبأت لكم تحت منبري طيبا أو علما وأمرت مالكا أن يفرقه على الناس فانصرف الناس وهم يقولون إذا ينفذ مالك ما أمره به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ثم بكى فقمت عنه اهـ.

فمن لم يُؤهَّل للتأليف، فواجب عليه أن يتأدب بالتوقف، وأن يسلك

طريق الطلب حتى يُفتح له، فإن العلم لا يُنال بالتشــهّي، وإنما بالتأهل والتزكية.

ومن استعجل الثمرة قبل النضج فاته الحلاوة والبركة معًا.

الباب الثاني:
نعمة موهبة التأليف وشكرها وآداب حَمْلها

إن التأليف موهبة ربانية ومنحة إلهية، يقسمها الله كما يقسم الأرزاق والمواهب، فيفتح على عبدٍ بالفهم، وآخر بقوة الوعظ والتذكير وعلى آخر بالحفظ، وعلى ثالثٍ بملكة البيان أو صنعة القلم.

وليس كل طالب علمٍ مؤلفًا، كما أنه ليس كل خطيبٍ باحثًا، فالله يعطي كلًّا على قدر حكمته ولطفه.

قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الزخرف: ٣٢].

وقال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ۚ﴾ [النحل: ٧١].

وهذه المواهب من جملة الأرزاق، فكما يُرزق الإنسان المال أو الجمال أو الصحة، يُرزق آخر الفهم، والبيان، وحسن التأليف.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قال:

«إِنَّ اللهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ»(١)

فالمواهب العلمية والعقلية من جملة ما يُقسَّم بين الناس، فمن رُزق

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٣٦٦٣) وصححه الإمام الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢/ ٢٤٢).

القدرة على التأليف فقد خُصَّ بموهبة عظيمة يجب أن يشكر الله كثيرا، لا أن يغترّ بها.

فالشكر يصون النعمة، والبطر يذهبها، والمؤلف الذي يدرك أن قلمه هبة من ربه يكتب متواضعًا لا متعاليًا، شاكرًا لا مفتخرًا.

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ:

«لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ»(١)

والمؤلف الذي يتكبر بعلمه أو يحتقر جهود غيره قد حجب بركة قلمه بنفسه، لأن العلم لا يجتمع مع الكبر.

وكل من كتب بنية الظهور ضاعت هيبة علمه وإن حسُن لفظه، ومن كتب متواضعًا رفع الله ذكره وإن خفي اسمه.

فالتأليف عبادة تحتاج إلى إخلاصٍ وتواضعٍ أكثر من غيرها، لأنها موضع نظر الخلق وابتلاء النفس بالثناء.

فمن عرف نفسه بالافتقار إلى الله في كل حركة وسكون، استحيا أن ينسب لنفسه كمالًا أو حولًا أو قوةً، بل يرى كل ما عنده فضلًا محضًا من مولاه.

فالمؤلف الحقّ، يعلم أن الفهم الذي فُتح له، والعبارة التي حَسُنت في قلمه، كلّها من عطايا الله، فشكره يكون بإحسان العمل ونسبة الفضل إلى

---

(١) رواه مسلم (٩٢).

الله، لا بالمنّ على الناس بما كتب.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال:

«مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللهَ»(١)

فمن شكر الله على موهبة التأليف، شكر أيضًا من أعانه وساهم في تعليمه، من شيوخه وأقرانه ومن نقل عنهم علمًا.

وأدب المؤلف أن يُقرّ بالفضل لأهله، وأن لا ينسى من أفاده علمًا أو فكرة، فذلك من شكر النعمة ودوامها.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ:

«مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ»(٢)

فمن سلك طريق التأليف نيةً لنشر العلم، وتعليم الناس، وتبليغ ما تعلم، فقد سلك سبيل العلم الموصِل إلى الجنة، بشرط أن يبتغي وجه الله وحده، لا مدح الناس ولا شهرتهم.

والمؤلف حين يجتهد في جمع مادته وبذل وقته وصبره في تحريرها، فإن الملائكة لتضع أجنحتها له كما تضعها لطالب العلم(٣).

فمن شكر نعمة التأليف أن يُحسن استعمالها، فلا يتهور في الكتابة بلا تأصيل، ولا يُكثِر التصنيف طلبًا للثناء، بل يجعل كل ما يكتبه خدمةً

---

(١) رواه الترمذي (١٩٥٤) وصححه الألباني في «صحيح الجامع الصغير وزيادته» (٢/ ١١٢٢)

(٢) رواه مسلم (٢٦٩٩).

(٣) كما جاء في الحديث الآخر عند الترمذي (٢٦٨٢) عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

للحق، وابتغاءً لمرضاة الله.

والمؤلف الناجح هو الذي يعلم أن أولى صفحات كتابه تبدأ في قلبه، فإذا صلحت النية صلح المداد، وإذا فسدت ضاع العمل وإن طُبع آلاف المرات.

قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ كما في «آداب الشافعي ومناقبه لأبي حاتم» (٧٩):

لَوَدِدْتُ أَنَّ الْخَلْقَ تَعْلَمُهُ، وَلَمْ يُنْسَبْ إِلَيَّ مِنْهُ شَيْءٌ أَبَدًا.

قال: وَدِدْتُ أَنَّ كُلَّ عِلْمٍ أَعْلَمُهُ تَعَلَّمُهُ النَّاسُ أُوَجَرُ عَلَيْهِ، وَلا يَحْمَدُونِي اهـ.

فهذا الإمام رحمة الله عليه في غاية الإخلاص وشكر النعمة؛ أن يرى المؤلف علمه ملكًا للأمة، لا حكرًا على اسمه، وأن يفرح بانتشار الحق ولو نُسي ذكره.

فذلك هو الشكر العملي الصادق، الذي به تدوم البركة في العلم والتأليف.

الفصل الأول: التهيئة العلمية قبل الكتابة.

إن التأليف لا يكون ثمرةً مباركة إلا بعد تأصيلٍ وتمكّنٍ في العلم.

فكما لا يُبنى السقف قبل الأساس، لا يُؤلف قبل التهيئة العلمية.

والكتابة قبل التعلّم جناية على العلم وعلى صاحبه، لأنها تُخرج فكرًا لم ينضج، وتزرع في القلوب فوضى لا ثمرة لها.

فلابد للمؤلف أن يسلك طريق الطلب، ويتربّى على منهج العلماء،

حتى إذا قوي عوده، وتهذّب فهمه، نفع الله به وأثمر قلمه.

عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال:

«تَسْمَعُونَ ويُسْمَعُ منكم، ويُسْمَعُ ممن سَمِعَ منكم»(١)

في هذا بيانٌ أن العلم يُتلقى ثم يُبلَّغ، لا يُخترَع ولا يُبتدأ من فراغ، فهو ميراث متصل، يأخذه اللاحق عن السابق.

ومن هنا كان التأليف الصحيح امتدادًا لسلسلة العلم، لا قطيعة معها، فالمؤلف الحق هو الذي سمع وتعلم قبل أن يكتب، وتلقّى قبل أن يُلقّن، فصار لسان صدقٍ لمن سبق.

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ:

«الْبَرَكَةُ مَعَ أَكَابِرِكُمْ»(٢)

وهذا الحديث قاعدة عظيمة في طلب العلم والتأليف، إذ يدل على أن البركة مقرونة بالأخذ عن الكبار من أهل العلم والتجربة، لا عمن تصدّر قبل التأهل.

فالعلم لا يُؤخذ من الصحف قبل أن يُؤخذ من الصدور، ولا يُكتب قبل أن يُتلقّى.

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢٩٣٩) وصححه الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها» (٤/ ٣٨٩) والوادعي في «الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين» (١/ ٥٣٩).

(٢) رواه ابن حبان في «صحيحه» (٥٦٠) وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٧٧٨).

ومن لزم الأكابر، بورك في علمه وتأليفه، وصار قوله أرسخ وأوثق؛ لأن البركة في السند، والبركة في الأدب، والبركة في ملازمة العلماء.

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لا يزال الناس بخير ما أخذوا العلم عن أكابرهم وعن أهل الثقة والعلم، فإذا أخذوه عن صغارهم وشرارهم هلكوا»(١)

فمن لم يلزم الأكابر ولم يتأدب بأدبهم ضاع منه ميزان العلم، وكتب بغير ضابط ولا فهم.

وكان السلف يعدّون من أعظم البلاء أن يتصدر الصغير قبل أوانه.

فالتهيئة العلمية تربية على أيدي العلماء، ترويض للفكر قبل القلم، وتزكية للنفس قبل النشر.

وعن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال:

«مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»(٢)

فمن لم يُرزق فقهًا راسخًا في الدين، لا يُؤهّل للتأليف فيه، لأن الكتابة بلا فقهٍ لا تعدو أن تكون تجميعًا للألفاظ.

أما الفقه فهو الفهم العميق، وضبط المقاصد، وتحقيق مناط العلم في المسائل.

والمؤلف الفقيه يزن الكلمة بميزان الشريعة، فلا يُطلقها حتى يتبيّن وجه الحق فيها.

---

(١) رواه البيهقي في «المدخل إلى السنن الكبرى - ت الأعظمي» (ص٢١٧).
(٢) رواه البخاري (٧١) ومسلم (١٠٣٧)

ومن تعلّم العلم قبل أن يتأدّب، فقد تفلّت من العلم كما يتفلّت الصيد من الشبكة.

فكيف بمن ألّف قبل أن يتأدب، وكتب قبل أن يتعلم؟! لذلك كان العلماء يربّون تلامذتهم على طول الملازمة قبل السماح لهم بالتأليف، حتى يُؤمن على أقلامهم أن تنحرف أو تزل.

ومن أعظم ما يُعين على التهيئة العلمية: كثرة القراءة في كتب المتقدمين، ومطالعة مناهجهم في الاستدلال، ومعرفة طرائقهم في التصنيف، فإنها مدارس في الفهم والتحقيق.

فالقلم الذي لم يتربّ على قراءة العلماء يكتب بلا بصيرة، فإياك أن تكتب رأيًا حتى تعلم من أين قلتَ.

فمن أراد التأليف فليُؤسس نفسه على التلقي، وليتزود من العلم زادًا يبلّغه نهاية الطريق، فالقلم بلا علم كالسيف بلا غمد، يُؤذي ولا ينفع.

والتهيئة العلمية ليست مرحلة زمنية، بل حال دائمة من التعلّم والتزكية، ما دام الكاتب حيًا يكتب لله.

الفصل الثاني فقه البحث والتوثيق العلمي

إن الكتابةَ في العلم لا تُبنى على الحفظ المجرد، بل على البحث المحرّر، والتوثيق المنضبط، والفهم العميق.

وقد كانت مهارةُ البحثِ من أهمّ ما يميّز العلماءَ الراسخين؛ إذ بها يُفرّق بين ناقلٍ مقلِّدٍ، ومؤلفٍ بصيرٍ متثبّتٍ.

فالعلماء ما بلغوا المنزلة إلا بتمحيص النصوص، وردّ المتشابه إلى المحكم، ومعرفة مراتب الأقوال وأدلتها فمما ينبغي في هذا الباب أن يلتزم الكاتب المؤلف بأمور منها:

أولًا: وجوب التثبت في جمع المادة

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال:

«كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ»(١)

وهذا الأصلُ في باب البحثِ والتأليف، فإن من نقل دون تثبّتٍ فقد كذب من حيث لا يشعر.

فالعالمُ وطالب العلم الباحثُ لا يكتب حتى يتحقق من مصدره، ويُراجع نصّه، ويعزو بدقةٍ إلى موضعه. وصدق القلمِ من صدق النقلِ، ومن خان الأمانة العلمية فقد خان في الدين.

فينبغي لكل كاتب أن لايروي ولا ينقل إلا بعد تحقق، ولا يكتب إلا بعد توثيق، فالرواية من غير تثبتٍ خيانةٌ للعلم وهذا شامل لكل باحثٍ ومؤلف، لأن كل نقلٍ في كتابك شهادة، والشهادة لا تصح إلا بعد العلم.

ثانيًا: الجمع بين النقل والفهم:

فعَنْ أَبِي بَكْرَةَ، ذَكَرَ أن النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال:

«فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَى أَنْ يُبَلِّغَ مَنْ هُوَ أَوْعَى لَهُ مِنْهُ»(٢)

---

(١) رواه مسلم (٥).

(٢) رواه البخاري (٦٦)

وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ:

«نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا شَيْئًا فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ»(١)

ففي الحديث بيانٌ أن الفهم جزءٌ من التبليغ، وأن نقل العلم لا يكفي دون وعيٍ لمعناه ومقصده.

فالمؤلف ليس ناقلًا فحسب، بل مفسّرٌ، محلّلٌ، يُعيد ترتيب المسائل في ضوء الأصول والقواعد.

فربّ ناقلٍ غير فاهمٍ أضاع المعنى، وربّ فاهمٍ محققٍ أحيا النصّ بعد خفائه.

فالناقل من غير فقهٍ ناقل حروفٍ، والعالم الناقل من فقهٍ ناقل نورٍ، فشتّان بين من يجمع الكلام في أوراقٍ، وبين من ينقل النور إلى القلوب.

ثالثًا: التوثيق والعزو

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾ [سورة الحجرات:٦].

وهذه الآية أصلٌ في وجوب التثبّت من الأخبار والنقول.

فالعزو الصحيح من أركان الأمانة العلمية، وبه تُعرف منزلة المؤلف.

وكان العلماء يُعنَون بالعزو حتى في الرسائل الصغيرة.

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٥٦)

ومِن أمانة العلم أن يُذكر القائل والمنقول عنه، فإن في ذلك حفظًا للعلم وأهله.

فلا يصحّ أن تنقل بلا توثيق، ولا أن تذكر الأقوال بلا مراجعها، فإن ذلك من سرقة العلم.

وعن أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالت: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ:

«الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ»(١)

أي من ادّعى ما ليس له من قولٍ أو علمٍ أو فضلٍ، فهو كاذب مزوّر، فمن نسب إلى نفسه بحثًا أو فكرةً ليست له، أو زعم التحقيق فيما لم يحققه، فقد تشبّع بما لم يُعطَ، ولبس ثوبي زورٍ، فصار في عداد المزورين على العلم وأهله.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال:

«مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا»(٢)

وهذا الغشّ عامّ في كل صور الخداع، ومن أعظمها الغشّ في العلم والكتابة، كمن ينقل من غيره بغير عزو، أو يُخفي المصدر ليُظنّ أنه من بنات فكره.

فالغشّ العلمي خيانة للقلم، واعتداء على حقّ العلم وأمانته.

فمن غشّ في العلم ذهب دينه، ومن غشّ في الحديث ذهب ورعه،

(١) رواه البخاري (٥٢١٩) ومسلم (٢١٢٩).
(٢) رواه مسلم (١٠١).

فمن غشّ في نسبة الأقوال أو سرق المعاني، أطفأ الله بركة علمه وإن كثر تصنيفه.

عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: دَخَلْنَا عَلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ عَلِمَ شَيْئًا فَلْيَقُلْ بِهِ، وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ فَلْيَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ، فَإِنَّ مِنَ الْعِلْمِ أَنْ، يَقُولَ: لِمَا لَا يَعْلَمُ اللهُ أَعْلَمُ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [سورة ص:٨٦].....الحديث»(١)

فمن التوثيق أن لا تتكلف العلم فيما لا تعلمه، وأن لا تكتب في مسألة إلا بعد التأكد من فهمها ودليلها.

وهذه عبودية الباحث: أن يكون أمينًا مع علمه، لا يتزيّن بالكثرة، بل يتجمل بالصدق حتى ينال بركة في حياته العلمية.

قال الإمام القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في «تفسيره الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٣):

وَشَرْطِي فِي هَذَا الْكِتَابِ: إِضَافَةُ الْأَقْوَالِ إِلَى قَائِلِيهَا، وَالْأَحَادِيثِ إِلَى مُصَنِّفِيهَا، فَإِنَّهُ يُقَالُ: مِنْ بَرَكَةِ الْعِلْمِ أَنْ يُضَافَ الْقَوْلُ إِلَى قَائِلِهِ اهـ.

وقال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ في «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ٩٢٢):

يُقَالُ: إِنَّ مِنْ بَرَكَةِ الْعِلْمِ أَنْ تُضِيفَ الشَّيْءَ إِلَى قَائِلِهِ اهـ.

وقال أبو عبيد في «الناسخ والمنسوخ» (المقدمة/ ٣٨):

من شكر العلم أن تقعد مع كل قوم فيذكرون شيئا لا تحسنه فتتعلم ثم

---

(١) رواه البخاري (٤٨٠٩) ومسلم (٢٧٩٩)

تقعد بعد ذلك في موضع آخر، فيذكرون ذلك الشيء الذي تعلمته فتقول: والله ما كان عندي شيء حتى سمعت فلانا يقول كذا وكذا فتعلمته فإذا فعلت ذلك فقد شكرت العلم اهـ.

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في «بستان العارفين» (ص١٦):

ومن النصيحة أن تضاف الفائدة التي تستغرب إلى قائلها فمن فعل ذلك بورك له في علمه وحاله ومن أوهم ذلك وأوهم فيما يأخذه من كلام غيره أنه له فهو جدير أن لا ينتفع بعلمه ولا يبارك له في حال.

ولم يزل أهل العلم والفضل على إضافة الفوائد إلى قائلها نسأل الله تعالى التوفيق لذلك دائما اهـ.

وقال القاسمي رَحِمَهُ اللَّهُ في «قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث» (ص٤٠):

لا خفاء أن من المدارك المهمة في باب التصنيف، عزو الفوائد والمسائل والنكت إلى أربابها تبرؤا من انتحال ما ليس له، وترفعًا عن أن يكون كلابس ثوبي زور.

لهذا ترى جميع مسائل هذا الكتاب معزوة إلى أصحابها بحروفها وهذه قاعدتنا فيما جمعناه ونجمعه.

وقد اتفق أني رأيت في «المزهر» للسيوطي هذا الملحظ حيث قال في ترجمة «ذكر من سئل عن شيء فلم يعرفه فسأل من هو أعلم منه» ما نصه: ومن بركة العلم وشكره، عزوه إلى قائله اهـ.

رابعًا: أدب الباحث مع إخوانه من طلاب العلم

إن من تمام العلم حسن الأدب مع أهله، فالعلم بلا أدبٍ وبالٌ على صاحبه، كما أن الأدب مع أهل العلم بابٌ إلى الفهم والبركة والتوفيق.

فكم من باحثٍ ذكيٍّ أفسد علمَه سوءُ خلقه مع إخوانه طلاب العلم، وكم من متواضعٍ بورك في فهمه بسبب أدبه معهم.

فالعلم ميراث الأنبياء، وأهل العلم حَمَلته، فمن توقيرهم توقير ما يحملون.

وليس المقصود من البحث العلمي استعراضَ المعرفة ولا الانتصارَ للرأي، بل طلبُ الحق والإنصاف، والاعترافُ بالفضل لأهله.

فمن رزقه الله خُلق الأدب مع إخوانه، رزقه الله فقهًا راسخًا، وقبولًا في الأرض، ونورًا في القلم والبيان.

ومن لم يكن للعلم عليه سلطان الأدب، فليس له من نوره نصيب، فمن أدب الباحث ألا يُغِلَّ صدره على أحدٍ من أهل العلم، وألا يجعل بحثه ميدانًا للخصومة، بل موطنًا للإنصاف.

فإن الحقّ أحقّ أن يُتّبع، ومن تواضع للعلم رفعه الله.

عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال:

«ارْحَمُوا تُرْحَمُوا، وَاغْفِرُوا يُغْفَرْ لَكُمْ، وَيْلٌ لِأَقْمَاعِ(١) الْقَوْلِ، وَيْلٌ

(١) جمع (قمع) كـ (ضلع): هو الإناء الذي يترك في رؤوس الظروف لتملأ بالمائعات من الأشربة والمعنى أنَّهم كالأقماع التي يدخل فيها الكلام من جهةٍ ويخرج من الأخرى، لا تستقر فيه فائدة ولا ينتفع بما سمع.

لِلْمُصِرِّينَ الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ»(١)

فمن لم يَفهم ما يسمع، ولا يتأدّب بما يكتب، صار كالأقماع التي تمرّ بها الكلمة دون أثر.

فالأدب مع أهل العلم ومع النصوص هو روح البحث وشرطه الأعظم.

خامسًا: ترتيب المادة وتنظيم الفكرة

إن من دلائل الرشد العلمي أن يُحسن الباحث ترتيب أفكاره، وتنظيم مادته قبل أن يخطّ القلمَ في الورق.

فالعلم المبعثر لا يُثمر، والمعلومات غير المنسقة يذهب بهاؤها ومعناها، إذ لا ينتفع القارئ بعلمٍ لا يُقدَّم في نظامٍ واضحٍ ومنهجٍ بيّن.

وقد كان أهل العلم رحمهم الله يعنون بترتيب العلوم وتحرير الفصول والباب قبل الشروع في التصنيف، لأن الترتيب من تمام البيان، والنظام من كمال الإحسان.

فحسنُ التأليف ليس في كثرة الكلام، وإنما في إحكام مواضعه، وربط معانيه، وإخراج الكتاب في صورةٍ تشرحُ الصدرَ وتدلّ على بصيرة المؤلف وفهمه.

فشُبِّهوا بمن يسمع العلم ولا يعيه، ولا يعمل به.

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٦٥٠٥) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤٨٢).

فمن أتقن الترتيب أبان عن فقهه، ومن أهمله ضيّع ثمرة علمه وإن كان واسع الاطلاع.

فالعلم المتناثر لا يُثمر، وإنما يثمر إذا جُمِع ورتّب، وقُسّم على الأبواب والفصول.

فمن حقّ الباحث على نفسه أن يُحكم ما كتب، ويراجعه مرة بعد أخرى، فإن الخطأ إن خرج من بين يديه بغير مراجعةٍ لزمه العيب.

فالكتابة لا تتمّ إلا بإعادة النظر، والمراجعة المتكررة، والتثبت من كل نقلٍ وعبارة، حتى يخرج الكتاب ناضجًا مستقيمًا.

ويمكن أن يستدل لذلك بما جاء عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ:

«أَنَّهُ كَانَ إِذَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَعَادَهَا ثَلَاثًا حَتَّى تُفْهَمَ عَنْهُ، وَإِذَا أَتَى عَلَى قَوْمٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ سَلَّمَ عَلَيْهِمْ ثَلَاثًا»(١)

فهذا منهج تربوي في البيان؛ فكما يُعيد المعلم كلامه ليُفهم، كذلك الباحث يعيد النظر في مادته حتى تُفهم عنه على الوجه الصحيح.

فليس الحسن في الكثرة، بل في الإحكام والإتقان.

(١) رواه البخاري (٩٤).

الباب الثالث:
أصول التأليف العلمي

التأليف ليس جمعًا للأوراق، ولا تكرارًا لما سبق، بل هو صنعة علمية دقيقة، تتطلب فكرًا ناضجًا، وإخلاصًا صادقًا، ومنهجًا منضبطًا.

فمن أراد أن يكون قلمه مباركًا، فليبدأ من الفكرة الصحيحة، وليبنِ على خطةٍ واضحةٍ، وليحرر المسائل بدقةٍ، ويوازن بين الإيجاز والتفصيل فمن الإرشادات في ذلك ما يلي.

الفصل الأول: بناء الفكرة وتحديد المقصد

عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

«إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِيَّة، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»(١)

هذا الحديث أصلُ الأصول، وميزانُ القلوب في كل عملٍ يُرفع إلى الله، وهو قاعدةُ التأليف الأولى؛ لأن الكتاب لا يُبارَك فيه إلا إذا وُلد من نيةٍ صالحة، ومقصدٍ واضح.

فما أكثر ما أُلفت كتبٌ ماتت يوم وُلدت، لأن أصحابها كتبوا بأقلام الرياء لا بأقلام الإخلاص، وسطروا لأنفسهم لا لدينهم، فذهبت أوراقهم

(١) رواه البخاري (١) ومسلم (١٩٠٧).

أدراج الرياح، ولم يبقَ منها إلا الحبرُ على الورق.

إن التأليف عبادةٌ لا تُقبل إلا بالنية، ووسيلةُ نفعٍ لا تُثمر إلا بالإخلاص، فابدأ قبل أن تكتب بتصفية مقصدك: أتريد وجه الله، أم وجه الناس؟ أتبغي نشر الحق، أم نشر اسمك؟

فإن أخلصت النيّة، بارك الله في القليل فأنبت الكثير، وإن خالطها هوى، جفّ الحبر قبل أن يجفّ المداد.

ولذا كان من عادة العلماء أن يبدؤوا مؤلفاتهم بحديث النية؛ تنبيهًا للقلوب، وتذكيرًا للعقول أن الطريق إلى الله يبدأ من داخل الصدر لا من أطراف القلم.

فالإمام البخاري رحمه الله: صدّر «صحيحه» بهذا الحديث ليكون تذكرةً لطالب العلم أن يقصد وجه الله بكل علمٍ يطلبه ويبلغه.

وافتتح الإمام النووي كتبه الثلاثة الكبرى «رياض الصالحين» و«الأذكار» و«الأربعين النووية» بالحديث نفسه، وجعل معناه شعارًا لمؤلفاته كلها.

وكذا فعل ابن دقيق العيد، وابن رجب، والسيوطي، والخطيب البغدادي، وكلهم قصدوا أن يعلّموا القارئ قبل العلم كيف يُخلص فيه.

وقال النووي رحمه الله:

أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى عِظَمِ مَوْقِعِ هَذَا الْحَدِيثِ وَكَثْرَةِ فَوَائِدِهِ وَصِحَّتِهِ قَالَ الشَّافِعِيُّ وَآخَرُونَ هُوَ ثُلُثُ الْإِسْلَامِ وَقَالَ الشَّافِعِيُّ يَدْخُلُ فِي سَبْعِينَ

بَابًا مِنَ الْفِقْهِ وَقَالَ آخَرُونَ هُوَ رُبْعُ الْإِسْلَامِ وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ وَغَيْرُهُ يَنْبَغِي لِمَنْ صَنَّفَ كِتَابًا أَنْ يَبْدَأَ فِيهِ بِهَذَا الْحَدِيثِ تَنْبِيهًا لِلطَّالِبِ عَلَى تَصْحِيحِ النِّيَّةِ وَنَقَلَ الْخَطَّابِيُّ هَذَا عَنِ الْأَئِمَّةِ مُطْلَقًا وَقَدْ فَعَلَ ذَلِكَ الْبُخَارِيُّ وغيره فابتدؤا به قبل كل شيء. اهـ(١).

وقال في «المجموع شرح المهذب» (١/ ١٦ ط المنيرية):

وروينا عن الإمام أبي سعيد عبد الرحمن بن مهدي رحمه الله قال لو صنفت كتابا بدأت في أول كل باب منه بهذا الحديث: وروينا عنه أيضا قال من راد أن يصنف كتابا فليبدأ بهذا الحديث. اهـ.

وجاء في كتاب «المجالس السنية في الكلام على الأربعين النووية - لأحمد بن حجازي الفَشني رَحِمَهُ اللَّهُ»-:

وقال بعضهم: لو صنفت مائة كتاب لبدأت في أول كل كتاب بهذا الحديث، أي «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ»، وهو حديث عظيم، كان السلف الصالح، يحبون افتتاح مصنفاتهم به، تنبيهاً للطالب على حسن النية واهتمامه بذلك، ولأنها من أجل أعمال القلوب، والطاعة المتعلقة بها، وعليها مدارها.

فالنية في التأليف بمنزلة القلب في الجسد، إن صلحت صلح كله، وإن فسدت فسد كله.

فيا من أمسكت القلم، تذكّر أن الله مطّلعٌ على سريرتك، فإن كان

---

(١) «شرحه على مسلم» (١٣/ ٥٣).

قصدك وجه الله رفعك، وإن كان غير ذلك وضعك.

ولا تكتب إلا وأنت تستشعر أنك توقّع عن دين الله، وأن كل سطرٍ تكتبه شهادةٌ تُرفع بين يديك يوم القيامة.

وكم من مؤلفٍ صادقٍ كتب لله فخلّد الله أثره، وكم من مؤلفٍ أراد الناس فذهب ذكره معهم.

فاحرص أن يكون عنوانك عبادةً، وفكرتك نيةً، وتأليفك صدقةً جارية، تسطر بها في الأرض ما تحب أن يُتلى عنك في السماء.

الفصل الثاني: وضع خطة البحث

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

«إِنَّ اللهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلا أَنْ يُتْقِنَهُ»(١)

فالإتقان في التأليف يبدأ من التخطيط، فالكاتب الذي يبدأ دون خطة كمن يبني بيتًا بلا خريطة.

ضع فصول كتابك، ورتبها من العام إلى الخاص، ووزع الأدلة توزيعًا متوازنًا.

إنَّ خطة البحث هي الخريطة التي يسير عليها المؤلف في طريق التأليف، وهي بمنزلة الأساس للبناء؛ إن صحّت استقام البنيان، وإن فسدت اضطرب العمل وتشتت الجهد.

---

(١) رواه أبو يعلى في «مسنده» (٤٣٨٦) وصححه الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها» (٣/ ١٠٦).

فهي تحديدٌ دقيقٌ لموضوع الكتاب أو الرسالة، وبيانٌ لمشكلته، وأهدافه، ومحاوره، والفصول التي سيتناولها الباحث بالعرض والتحليل.

ومَن كتب بلا خطة، كان كمن يسير في بحرٍ بلا بوصلة، أو يبني بيتًا بلا أساس.

فأول ما يفعله الباحث الجادّ:

أن يحدّد فكرة بحثه تحديدًا واضحًا، ويبيّن هدفه الشرعي والعلمي، ثم يجمع ما يتصل بها من المصادر والمراجع، فيصنّفها على مثلا على حسب الأبواب والفصول.

أو يجعلها مباحث وبعدها يرسم التقسيم العام للبحث: من مقدمةٍ تبيّن المقصد والنية، إلى أبوابٍ تتناول المسائل مرتّبة على منهجٍ علميٍ متدرج، ثم خاتمةٍ تُوجِز النتائج والتوصيات.

وقد كان العلماء السابقون – وإن لم يسمّوها «خطة بحث» بالاصطلاح الحديث يعملون بها في الحقيقة؛ فكان أحدهم قبل التأليف يدوّن رؤوس المسائل التي سيعالجها، ويضع لها ترتيبًا محكمًا، حتى لا يتداخل الكلام ولا يضيع المقصود.

ومن معاني الخطة أيضًا: أن تكون مرنةً لا جامدة، فربّ مسألةٍ لم تكن في حسبان الباحث تظهر أثناء الجمع والتحرير، فيضيفها حيث يناسبها دون إخلالٍ بالترتيب العام.

والباحث الموفّق هو الذي يجعل خطته خالصةً لله، متوجهةً إلى نفع

العلم وأهله، يزن كل فصلٍ وموضوعٍ بميزان المقاصد الشرعية، فيكتب على بصيرةٍ ونظامٍ، لا على عشوائيةٍ وارتجال.

فالنية الصادقة مع الخطة المحكمة هما جناحا التأليف الناجح، ومن فقد أحدهما لم يكد يبلغ غايته.

الفصل الثالث: تحرير المسائل العلمية

التحريرُ العلمي هو روحُ البحث وميزانُ الفهم، وبه يُعرف قدرُ المؤلف عند القارئين، إذ ليس الشأنُ في جمع الأقوال، وإنما في فقهها وترجيحها، وإيضاح وجه الصواب منها بدليلٍ وبرهان.

فالمحرِّر هو من يزنُ الأقوال بميزان الدليل، ويُميّز الصحيح من السقيم، ويجمع بين النصوص في مواضع التعارض الظاهر، ويضع كل مسألةٍ في موضعها الصحيح.

والمقصود بتحرير المسألة: ضبطُها تعريفًا، وحدودًا، وأقوالًا، وأدلةً، ثم مناقشة تلك الأقوال وصولًا إلى القول الراجح بدليله.

فهي مرحلة الفهم العميق بعد الجمع، والتمحيص بعد النقل.

وطالب العلم لا يكتب أو يُفتي حتى يُحسن التحرير، لأن العلم كما قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: «ليس بكثرة الرواية، ولكن بنورٍ يقذفه الله في القلب».

فمن كتب قبل أن يُحرّر، وقع في التناقض والتكرار، وخلط بين المتشابه والمختلف.

فطالب العلم الباحث الماهر هو من عرف اختلاف الناس، واستنبط من الأدلة ما يقتضيه الدليل الصحيح، ولم يكن مقلدًا لقولٍ بعينه من غير برهان.

فالتحرير إذًا هو الجمع بين الفهم والدليل، وبين النقل والعقل، وبين الإنصاف والتجرد.

والمؤلف المحقق لا يقف عند ظاهر النصوص، بل يتتبع عللها ومقاصدها، فيخرج بنتيجةٍ واضحةٍ تؤسس للفكر العلمي الرصين.

ولتحرير المسائل ضوابط منها:

١- أن تُصاغ بلُغةٍ علميةٍ دقيقةٍ بعيدةٍ عن الغموض أو التكلف.

٢- أن يُجمع ما فيها من النصوص الشرعية ولُتوج ذلك بأقوال العلماء المعتبرين.

٣- أن يُذكر الخلاف فيها على وجهٍ منصفٍ غير مائلٍ لهوى.

٤- أن يُبيَّن القول الراجح مع دليله وتعليله، دون تجنٍّ أو استعلاء.

٥- تحقيق الألفاظ والمعاني: بأن يفهم الباحث نصوص الباب فهمًا دقيقًا، ويضبط مصطلحات العلماء، ويستوعب وجوه الاستدلال، فلا يُعبّر بلفظٍ حتى يعلم حدَّه اللغوي والشرعي والعرفي.

٦- استقراء أقوال العلماء: فيجمع ما قيل في المسألة من المذاهب والمصادر، ثم ينظر في أسانيدها، ومدى قوتها، ومأخذها من الدليل، دون تعصبٍ أو إهمالٍ لقول معتبر.

٧- أن يربط الباحث بين تحرير المسألة وما ينتج عنه من أثر عملي في البحث أو التأليف العلمي، ليكون العمل نافعًا ومرتبطًا بالمقاصد الشرعي.

فليس الهدف مجرد عرض المسائل والأقوال والنصوص الشرعية بطريقة نظرية فقط، بل يجب أن يراعي الباحث كيف يمكن أن يُفيد هذا البحث أو التأليف في الواقع. مثال: إذا كان البحث عن النية في التأليف، فإن الباحث لا يكتفي بعرض الأحاديث وأقوال العلماء، بل يوضح كيف يمكن للمؤلفين أو الباحثين أن يطبقوا هذا المبدأ عند كتابة كتب أو مقالات علمية حديثة

فكلما كان التحرير أدقّ، كان الكتاب أنفع، وكلما كان المؤلف أصدق في بحثه، فتح الله له في الفهم والتمييز.

وما أُصيب العلم في عصرٍ من العصور إلا من ضعف التحرير، واستعجال الكتابة قبل التحقيق.

والحقيقة إنما يُعدّ الباحث من ضبط أصول العلم، وقاس عليها فروعه، وميّز بين المختلف والمتفق، ولم يُلق الكلام جزافًا.

فمن أراد أن يكون قلمه مباركًا، فليُعظّم مقام التحرير، وليجعل دليله أمام رأيه، فإن القول بلا تحقيقٍ زلل، والتحقيق بلا تواضعٍ كِبر.

الفصل الرابع: الموازنة بين الإيجاز والتفصيل

قال الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ [سورة النور:٥٤].

فالبلاغ المبين لا يكون مطوّلًا حتى يملّ القارئ، ولا مقتضبًا حتى يضيع المعنى، بل وسطًا بينهما.

فخير الكلام ما قلّ ودلّ، والكاتب الحكيم يعرف متى يُوجز ومتى يُطنب.

اقتصر أيها الباحث على الإيجاز ما وجدت إليه سبيلًا، فإن كثرة التطويل تُورث الملال.

فمن الإيجاز أن تُختصر العبارات دون إخلال، وأن تُغني الجملة عن الفقرة، وأن يُترك الحشو الذي لا ثمرة فيه.

أما التفصيل فحيث يكون الإبهام مفسدًا للفهم، أو يكون المقام مقام تقريرٍ وتأصيلٍ.

ولتحقيق ذلك، على الباحث أن يضع معيارًا لتحديد متى يكفي الإيجاز ومتى يحتاج التفصيل، بحيث يكون كل فصل وكل فقرة في مكانها الصحيح.

فالإيجاز مناسب إذا كانت الفكرة واضحة بالنصوص أو الأمثلة، أما التفصيل فيكون مطلوبًا عند الحاجة لتوضيح مسألة خلافية أو تأصيل معنى معين.

ومن النصائح العملية للباحث: حاول تحويل النصوص الطويلة إلى جمل مختصرة تعطي المعنى الكامل، وفي المقابل، لا تتردد في توسيع النصوص المختصرة إذا رأيت أن الفكرة تحتاج إلى شرح أو دعم بالأدلة. كما يجب الحذر من الإفراط في الإيجاز الذي يخلّ بالمعنى، أو من التطويل الممل الذي يضعف فهم القارئ ويشتت انتباهه.

بهذه الموازنة بين الإيجاز والتفصيل، يكتب الباحث بأسلوب واضح، متوازن ونافع، يجعل القارئ يستفيد دون شعور بالملل، ويحقق الهدف من التأليف العلمي

الفصل الخامس: إخراج المعنى في أسلوب نافعٍ مؤثر

ليس المقصود من الكتابة حشدَ المعلومات فحسب، بل إيصالُ المعنى بعبارةٍ بيّنةٍ تُحرك الفكر وتؤثر في القلب.

فكم من معنى عظيمٍ ضاع بين ألفاظٍ غامضة، وكم من علمٍ نافعٍ زهد فيه الناس لسوء عرضه.

إن المؤلفَ الناجح هو الذي يجمع بين صفاء المعنى وجمال المبنى، فيصوغ الحقائق بلغةٍ جزلةٍ مؤثرةٍ لا تكلّف فيها ولا تقعر.

فالأسلوب جسرٌ بين الكاتب والقارئ، كلما كان سهلًا قريبًا، وصل المعنى إلى القلوب دون عناء.

وقد قال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حدثوا الناس بما يعرفون،

أتحبون أن يُكذّب الله ورسوله؟»(١)

فهذا أصــلٌ في مراعاة حال المخاطب، وأن البيان لا يُقاس بزخرفة اللفظ، بل بقدر ما يُفهم عنه ويُنتفع به.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في «المجموع شــرح المهذب» (١/ ٣٠ ط المنيرية):

وَلْيَحْرِصْ عَلَى إيضَاحِ الْعِبَارَةِ وَإِيجَازِهَا فَلَا يُوَضِّحُ إيضَاحًا يَنْتَهِي إلَى الرَّكَاكَةِ وَلَا يُوجِزُ إيجَازًا يُفْضِي إلَى الْمَحْقِ وَالِاسْتِغْلَاقِ: وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ اعْتِنَاؤُهُ مِنْ التَّصْنِيفِ بِمَا لَمْ يُسْبَقْ إلَيْهِ أَكْثَرَ اهـ.

وقد جاء عَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُشَــنِيِّ، أَنَّ رَسُــولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

«إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي، مَجَالِسَــنُكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَــكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي، مَسَاوِئُكُمْ أَخْلَاقًا، الثَّرْثَارُونَ، الْمُتَشَدِّقُونَ الْمُتَفَيْهِقُونَ»(٢)

والثرثار هو المتكلف في الكلام، والمتفيهق هو المتعمق في الألفاظ ليُظهر علمه، وهذا كله من التكلف المذموم الذي يقطع أثر الكلمة من القلب.

فينبغي للمؤلف أن يكتب بعفوية طالب العلم المتواضــع لا بتصــنع المتكلف، وأن يجعل لفظه تابعًا لمعناه، لا أن يجعل المعنى أسيرًا للفظه.

---

(١) ذكره البخاري في «صحيحه» تعليقا.

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (١٧٢٨٩) وصححه الإمام الألباني في «صحيح موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان» (٢/ ٢٤٤).

فالأسلوب النافع ما جمع بين:

وضوح الفكرة؛ فيفهمها القارئ بلا غموض.

جمال العبارة؛ فتستميل النفس وتُقنع العقل.

صدق الشعور؛ لأن الكلمة الخارجة من القلب تصل إلى القلب، وما كان مصطنعًا لا يتجاوز الآذان.

والكاتب البصير يُوازن بين البيان والإيجاز، فيُوجز حيث يحسن الإيجاز، ويُفصّل حيث تدعو الحاجة، ويُزين كلامه بآياتٍ وأحاديث وحِكمٍ سائغةٍ لا تزاحم المعنى بل تخدمه.

فالأسلوب المؤثر ليس في الطول ولا الزخرف، بل في الصدق والإخلاص وحسن البيان.

ومَن رزقه الله حسنَ السبك مع صدق النية، كان قلمه هاديًا، وبيانه صدقةً جارية إلى يوم القيامة.

فاجعل قلمك خادمًا للمعنى لا سيدًا عليه، وسهّل على القارئ طريق الفهم، وابتعد عن التعقيد اللفظي والسجع المتكلف، فإن الحق إذا لبس ثوبًا بسيطًا نَفَذ إلى القلوب.

جاء في كتاب «تأملات في دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب» (ص٩):

وبعد استقرار الشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- في حريملاء عام (١١٣٩هـ)، وكان عمره وقتئذ خمسة وعشرين عاما، بدأ يضاعف جهوده

في ثلاثة مجالات دعوية:

أولها: تأليف الكتب، والرسائل التي تتسم بأسلوبها السّهل، ومعانيها الواضحة، مما دفع بالكثير من العامة، وطلبة العلم إِلى حفظها عن ظهر قلب اهـ.

وقال أيضا في «تأملات في دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب» (ص١٢٩):

فأما الكتب والرسائل، فإِن غالبها يتميز بصغر حجمها، واختصارها واقتصارها على النصوص، ويتميز أسلوبها بالسهولة، والوضوح التام، وبعده عن الألفاظ الغريبة، والمصطلحات الفلسفية والكلامية، ويغلب عليها الدعوة إِلى التوحيد، وترسيخ العقيدة الإِسلامية الصحيحة، وبيان الحق بأدلته، والتذكير والوعظ، والإِكثار من إِيراد الآيات والأحاديث، وبيان المسائل التي تتناولها هذه الآيات والأحاديث.

وحول الأسباب الكامنة وراء تميّز كتب الشيخ محمد بن عبد الوهاب بالاختصار يقول أحد الباحثين: زعيم تحفّ به المسائل، والمشاكل من كل جهة، لا يجد متسعا من الوقت لتأليف الكتب المستفيضة؛ لذلك كانت رسائله أكثر من كتبه، وأحاديثه أكثر من رسائله اهـ.

الباب الرابع:
صناعة الكتاب وصياغة الرسالة

إن الكتابَ مرآةُ صاحبه، والقلمُ شاهدُ عدلٍ على فكر كاتبه.

وما من مؤلفٍ خرج للعالم بكتابٍ نافعٍ إلا كان ذلك ثمرةَ إخلاصٍ وصبرٍ وتحرٍّ للأمانة.

وصناعةُ الكتاب ليست مجرّد طباعةٍ وتنسيقٍ، بل هي فنٌّ علميٌّ وأدبيٌّ يجمع بين الأمانة في المضمون، والجمال في العرض، والصدق في الغاية.

الفصل الأول: آداب الكاتب في نفسه.

إن أول ما يُطلب من المؤلف قبل فكره وقلمه هو تهذيب نفسه وإصلاح قصده، لأن القلم مرآة القلب، يخطّ على الورق ما انطبع في الصدر.

فصلاح الكاتب مقدمة لصلاح كتابه، وفساد النية سبب لذهاب بركته.

والتأليف في الإسلام عبادةٌ عظيمة، لا تقلّ شرفًا عن الصلاة والدعوة، إذ هو تبليغٌ لشرع الله ونشرٌ للعلم بين عباده.

ومن أراد أن يُوفّق في كتابه فليُطهّر نيته، ويُزكّ نفسه، ويجعل غايته وجه الله وحده.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢].

فمن كتب لله نفع الله به، ومن كتب رياءً حُرم التوفيق وإن كثرت مؤلفاته.

فأول أدبٍ على الكاتب أن يُصلح نيته قبل القلم، ويجددها في أثناء العمل وبعده، لأن الرياء يتسلل إلى القلب كما يتسلل النمل على الصفا.

ومن آداب الكاتب في نفسه:

الإخلاص في النية:

فلا يكتب ليُقال كاتب أو عالم، بل ليُقال نفع الله به، وكل مؤلفٍ لم يُبنَ على نيةٍ صالحةٍ فهو هباءٌ في ميزان الآخرة.

التواضع للحق وأهله:

فالمؤلف خادمٌ للعلم لا سيده، يكتب ليُبيّن لا ليتعالى.

قال ابن المبارك رحمه الله: «رأس الأدب التواضع».

الزهد في الشهرة والثناء:

فإن محبة الظهور تقطع عن الإخلاص، وتُذهب نور العلم.

الصبر على البحث والكتابة:

فالتأليف جهادُ عمرٍ طويل، يحتاج إلى طول نفسٍ وصبر على المراجعة والتدقيق، كما قال الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾

[النحل: ١٢٧].

الأمانة العلمية:

فلا ينسب لنفسه ما ليس له، ولا يقتطع من كلام غيره بغير بيانٍ أو عزوٍ، فإن الكلمة أمانةٌ يسأل الله عنها كما يسأل عن المال.

دوام التزكية والمحاسبة:

فكلما كتب فصلًا أو بحثًا، سأل نفسه: ما غايتي؟ أهو لله أم للدنيا؟ فإن وجد في قلبه عُجبًا استغفر ورجع، لأن القلم لا يُثمر إلا من قلبٍ خاشع.

فالإخلاص تصفية العمل من كل شوب، فلا يبقى فيه غير الله، ولا يُراد به سوى الله.

فمن تخلّق بهذه الآداب، كان قلمه مباركًا، وكتابه شاهد صدقٍ له يوم القيامة.

فالقلم المخلص لا يكتب حروفًا، بل يزرع آثارًا تمتد بعد صاحبه ما بقيت الدنيا.

وعن أبي أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ:

«مَنْ خَرَجَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ حَتَّى يَرْجِعَ»(١)

فمن نوى بخدمته العلمية وجه الله، كان في جهاده هذا مأجورًا أجر

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٤٧) وحسنه لغيره الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ١٤٦).

المجاهد في سبيله.

والمؤلف أحد طلاب العلم، لكنه يجاهد بالقلم والورق، يواجه شبه الجهل بمداد الحق.

فينبغي لطالب العلم أن يُخلص لله في طلبه، ولا يجعل العلم سلمًا إلى الدنيا

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ عَلِمَهُ ثُمَّ كَتَمَهُ أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ»(١)

فمن آدابه أيضًا أداء الأمانة في البلاغ، فلا يمنع علمه حسدًا، ولا يحرفه طلبًا للثناء، بل يُخرج ما علم لله.

العالم الصادق يكتب لله، ويكتم لله، ويُظهر لله، فإن كان في إظهاره نفعٌ أظهر، وإن كان في كتمه فتنةٌ كتم.

الفصل الثاني: أسلوب الكتابة

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت:

«كَانَ كَلَامُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كَلَامًا فَصْلًا، يَفْهَمُهُ كُلُّ مَنْ سَمِعَهُ»(٢)

فمنهج الكاتب الحق أن يكون كلامه واضحًا، بيّنًا، قريبًا من القلوب،

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٤٩) وصححه الإمام الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ١٦٠).

(٢) رواه أبو داود (٤٨٣٩) وصححه الألباني في «صحيح أبي داود (٤٨٢٦)

بعيدًا عن الغموض والتكلف.

فخير أسلوبٍ ما جمع بين البساطة والعمق، وبين جمال اللفظ وقوة المعنى.

ومن القواعد التي تضبط أسلوب الكاتب:

١- سلامة اللغة من اللحن والأخطاء، فإن اللسان الصالح للعلم أليق بالعالم.

٢- الترتيب المنطقي للأفكار، فلا يُقدّم النتائج على المقدمات.

٣- الاقتصاد في الحشو، فإن الإطالة بلا فائدة تُميت المعنى.

٤- انتقاء الألفاظ الحسنة في الردود إلا فيما احتيج إليه، فالجدال العلمي ميدانُ أدبٍ قبل أن يكون ميدان حجة.

٥- الاعتدال في البيان، فلا يُسرف في السجع المتكلّف، ولا يجفّف عباراته حتى تخلو من الجمال.

الفصل الثالث: ضوابط التأليف الراسخ

إنّ التأليف في العلم لا يقوم على الحماسة وحدها، بل على منهجٍ راسخٍ يُميّز بين الإنتاج النافع والتكرار المملّ، وبين التأصيل المتين والزخرف اللفظي.

فالمؤلِّف الراسخ يزن خطاه بميزان الورع والعلم، فلا يُقدِم على الكتابة إلا بعد نظرٍ وبصيرةٍ وتحقّق.

ومن أهمّ ضوابط التأليف الراسخ ما يلي:

الأولى: عدم تكرار ما أُلِّف إلا بزيادةٍ علميةٍ نافعة

فمن أدب التأليف أن لا يُعيد الكاتب ما كفاه غيره، إلا أن يأتي فيه بزيادة علمٍ أو تحقيقٍ جديدٍ أو تهذيبٍ نافع.

فمن صنّف في فنٍّ قد سُبق إليه، ولم يأتِ فيه بزيادة علمٍ، كان مكرّرًا لا مؤلفًا

فليس من الأدب العلمي أن يُكثر المرء التصانيف في أبوابٍ مبحوثةٍ حتى يملّ الناس تكرارها، بل يكتب حيث الحاجة، ويزيد حيث النفع.

والتجديد في التأليف لا يعني تغيير الألفاظ، بل الإضافة في المعنى والفهم والاستنباط.

وقد اختصر في هذه المسألة حاجي خليفه في كتابه «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» (١/ ٣٨)

حيث قال: التأليف على: سبعة أقسام، لا يؤلف عالم عاقل إلا فيها، وهي:

١- إما شيء لم يسبق إليه، فيخترعه.

٢- و: شيء ناقص يتممه.

٣- أو: شيء مغلق يشرحه.

٤- أو: شيء طويل يختصره، دون أن يخل بشيء من معانيه.

٥- أو: شيء متفرق يجمعه.

٦- أو: شيء مختلط يرتبه.

٧- أو: شيء أخطأ فيه مصنفه، فيصلحه.

وينبغي لكل مؤلف كتاب في فن قد سبق إليه: أن لا يخلو كتابه من خمس فوائد.

١- استنباط شيء كان معضلا.

٢- أو: جمعه إن كان مفرقا.

٣- أو: شرحه إن كان غامضا.

٤- أو حسن نظم وتأليف.

٥- وإسقاط حشو وتطويل.

وشرط في التأليف: إتمام الغرض الذي وضع الكتاب لأجله، من غير زيادة ولا نقص، وهجر اللفظ الغريب، وأنواع المجاز، اللهم إلا في الرمز، والاحتراز عن إدخال علم في آخر، وعن الاحتجاج بما يتوقف بيانه على المحتج به عليه، لئلا يلزم الدور.

وزاد المتأخرون: اشتراط حسن الترتيب، ووجازة اللفظ، ووضوح الدلالة، وينبغي أن يكون مسوقا على حسب إدراك أهل الزمان، وبمقتضى ما تدعوهم إليه الحاجة، فمتى كانت الخواطر ثاقبة، والإفهام للمراد من الكتب متناولة، قام الاختصار لها مقام الإكثار، وأغنت بالتلويح عن التصريح، وإلا: فلا بد من كشف، وبيان، وإيضاح، وبرهان، ينبه الذاهل، ويوقظ الغافل اهـ.

وقال الإمام النووي رحمه الله في «المجموع شرح المهذب» (١/ ٣٠ ط

المنيرية):

وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ اعْتِنَاؤُهُ مِنْ التَّصْنِيفِ بِمَا لَمْ يُسْبَقْ إلَيْهِ أَكْثَرَ.

وَالْمُرَادُ بِهَذَا أَنْ لَا يَكُونَ هُنَاكَ مُصَنَّفٌ يُغْنِي عَنْ مُصَنَّفِهِ فِي جَمِيعِ أَسَالِيبِهِ فَإِنْ أَغْنَى عن بَعْضُهَا فَلْيُصَنِّفْ مِنْ جِنْسِهِ مَا يَزِيدُ زِيَادَاتٍ يُحْتَفَلُ بِهَا مَعَ ضَمِّ مَا فَاتَهُ مِنْ الا ساليب وَلْيَكُنْ تَصْنِيفُهُ فِيمَا يَعُمُّ الِانْتِفَاعُ بِهِ وَيَكْثُرُ الِاحْتِيَاجُ إلَيْهِ اهـ.

الثاني: التحقّق من المصادر والإحالات

إن العزو الصحيح أصل الأمانة العلمية، وبه يُعرف الصادق من المدّعي.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال:

«مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»(١)

ويدخل في هذا كل من نسب إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أو إلى العلماء ما لم يقولوه، فالكذب في النقل جريمة، وإن لم يُرد صاحبها الإثم، ما دام قد قصّر في التثبت.

ومن صور الكذب العلمي أن ينقل المؤلف نصًّا من غير مصدره، أو يعزو بلا تحقق، أو يُحوّر النص ليدعم رأيه.

والمؤلف الأمين يحرص على الدقة في النقل كما يحرص الصدّيق على الصدق، فإن القلم شاهدٌ عليه يوم يقوم الأشهاد.

---

(١) رواه البخاري (١٠٧) ورواه مسلم (٣).

فالتأليف، لا يُقبل من مؤلفٍ إلا ما كان موثوقًا بعزوه، مضبوطًا بتحقيقه، نقيًّا من التحريف والهوى.

الثالث: العناية بالتنسيق والمراجعة.

الكتاب مرآةُ صاحبه، فإذا خرج مضطربًا أو مشوَّشًا دلّ على تسرّعٍ وقلة ضبطٍ.

فالمراجعة ليست عملًا سهلا يمكن تمريره بغير تركيز، بل ركنٌ من أركان الإتقان، يراجع فيه المؤلف لغته، وتخريجاته، وترتيب أبوابه، وتناسق عباراته، حتى يخرج الكتاب متماسك البنية، مستقيم المعنى.

وكان بعض العلماء يُعيدون قراءة مصنفاتهم عشرات المرات قبل نشرها.

الرابع: تجنّب كثرة الحواشي المملّة

إن من الآفات التي ابتُلي بها كثيرٌ من الباحثين في عصرنا: الإغراق في الحواشي، حتى صارت كتبُ بعضهم أشبهَ بمقابر للمتون، تُدفن فيها النصوص تحت ركام التعقيد والهوامش.

وقد كان مقصدُ العلماء الأوائل تسهيل العلم وتقريبه، فجاء من بعدهم من جعل التيسيرَ تعسيرًا، والاختصارَ إطنابًا.

ومن أعجب ما ترى أن تجد كتابًا مختصرًا وضعه مؤلفه برحمةٍ بالطلبة، فيأتي أحد المتأخرين فيحشّيه بعشرات التعليقات، ظنًّا أنه أحسن صنيعًا، وهو في الحقيقة ناقضٌ لمقصد المصنّف الأول.

ولو أن هؤلاء المحشّين سألوا أنفسهم: هل كان مؤلف الكتاب يرضى لو كان حيًّا أن يُثقَّل كتابُه بهذا؟ لعلموا أنهم اعتدَوا على منهجِه، وغيّروا ملامحَ مصنَّفه، وضاع بسببهم جمالُ الاختصار وحكمةُ البيان.

إن الحاشية إنما جُعلت خادمةً للمتن، لا سيّدةً عليه، تُوضّح الغامض وتُبيّن المهمّ، فإذا تجاوزت هذا الحدّ صارت سجنًا للفهم لا معينًا عليه.

ولو راجع هؤلاء ما صنعوه لعلموا أن الإكثار من الحواشي بابُ رياءٍ علميٍّ لا بابُ نفعٍ شرعيٍّ، إذ يُشغل القارئ عن المعنى بالهامش، ويجعل النصَّ ميدانَ حواشٍ لا ميدانَ فهمٍ.

إلى الله المشتكى من أقلامٍ حوّلت العلمَ إلى زينةٍ لفظيةٍ، وضيّعت المقاصدَ بالاستطراد المملّ، حتى أرهقوا طلابَ العلم الصادقين الذين لا يريدون إلا الفهم والعمل.

فليتقِ الله كل كاتب ومؤلف باحث.

فالقلم الذي يُثقل الكتبَ بالحواشي لا يخدم العلم، بل يدفنه تحت أوراقه.

ومن رام نفع الناس فليكتب بوضوحٍ ورحمة، كما كتب الأئمةُ الذين سطّروا العلم ليُفهَم لا ليُعجَب به.

إن الحاشية إنما جُعلت خادمةً للمتن لا سيدةً عليه، فإذا كثرت أضاعت المعنى وقطعت تسلسل الفهم.

والمبالغة في الهوامش علامة اضطرابٍ في البناء، إذ يُغني التوضيح

البسيط عن حشد الكلمات والنقول.

فالحاشية موضع توثيقٍ ضروري أو بيانٍ مختصر، دون تطويلٍ يملّ القارئ.

ومن آفة الكاتب أن يُثقِل على قارئه بما لا يُحتاج إليه.

فخير الحواشي ما خدمت المعنى، وشرّها ما شغلت الذهن عن المقصود.

الخامس: الجمع بين العلم والبيان

فالعلم بلا بيانٍ جمود، والبيان بلا علمٍ زينةٌ جوفاء.

والمؤلف الموفق هو من جمع بين قوة الفهم وجمال اللفظ.

فإذا اجتمع صدق المضمون مع حسن الأسلوب، نفع الله بالكلمة القريبة والبعيدة، وكتب لها القبول.

أما من كتب ليتأنق في اللفظ دون فهمٍ راسخ، فقد باع الجوهر بالزخرف.

فليكن بيان المؤلف نورًا لعلمه لا غطاءً له، وليحرص أن يكون أسلوبه خادمًا للحق لا سيّدًا عليه، فإن غاية التأليف أن يُفهم الحق ويُحبّ، لا أن يُقال ما أبلغه وأفصحه.

السادس يجمع المادة ويقمش كما قيل «قمش ثم فتش»

من المراحل المهمة في طريق التأليف أن يشرع الباحث في جمع مادته العلمية، قبل أن يشرع في صياغتها وتحريرها، فإن الكتاب لا يُبنى من

فراغ، وإنما هو ثمرة جهدٍ طويلٍ في الجمع والانتقاء والترتيب.

وقد عبّر العلماء عن هذه المرحلة بقولهم: «قمش ثم فتش»؛ أي اجمع أولًا، ثم انقش ما جمعت نقشًا حسنًا.

قال السخاوي رَحِمَهُ اللَّهُ «فتح المغيث بشرح ألفية الحديث» (٢/ ٢٤٧):

إِنَّ أَهْلَ الْحَدِيثِ يَقُولُونُ: إِذَا كَتَبْتَ فَقَمِّشْ؛ أَيْ: جَمِّعْ مَا وَجَدْتَ، وَإِذَا حَدَّثْتَ فَفَتِّشْ؛ أَيْ: تَثَبَّتْ عِنْدَ الرِّوَايَةِ. اهـ.

ومعنى القمش هو الجمع من مظانّ العلم ومصادره، سواء من الكتب أو الأبحاث أو أقوال العلماء، ثم يأتي بعده النقش، وهو مرحلة الصياغة والتحرير والاختصار والربط بين الأجزاء حتى يخرج الكلام منثورًا منسقًا يليق باسم التأليف.

فالتأليف الحق لا يكون إلا بعد استيفاء هاتين المرحلتين:

مرحلة القمش: وهي مرحلة التحصيل، وفيها يجمع الباحث المادة دون انشغال بالأسلوب، فيلتقط الفوائد، ويقيّد النقول، ويدون الأفكار، ويستقرئ النصوص من مظانّها.

مرحلة الفتش: وهي مرحلة التحرير، وفيها يختصر، ويوازن، ويهذب، ويعيد ترتيب ما جمعه، فيخرج الكتاب في صورة علمية محكمة.

وقد كان السلف يسيرون على هذا المنهج في تصانيفهم، فكانوا يجمعون أولًا، ثم يحررون ما جمعوه بدقة وتمهل.

غير أن الخلل إنما يقع حين يقتصر الباحث على القمش دون النقش،

فيكتفي بجمع المادة دون تدبرٍ لمعانيها أو تمييزٍ لصحيحها من سقيمها، فيغدو كتابه حشدًا من النقول المكررة لا روح فيها.

ولذلك كان من آداب الباحث أن يُطيل مرحلة الجمع، وأن يُتبعها بالنقش الهادئ الممحص، فينضج فكره قبل أن يُخرج عمله.

فالقمش بلا نقش تكديس، والنقش بلا قمش ارتجال، ومن جمع بينهما على بصيرة خرج كتابه نافعًا راسخًا بإذن الله.

فمن التزم بهذه الضوابط، خرج كتابه بإذن الله نافعًا متقنًا، تُشمّ منه رائحة العلم، وتظهر عليه سمات الصدق.

ومن خالفها، كثر إنتاجه وقلّ نفعه، وصار من المكثرين بلا أثر.

فاحرص – رحمك الله – أن تكون من الراسخين في العلم، لا من المتسارعين إلى الورق.

الباب الخامس:
فوائد من سير المؤلفين الأوائل

لقد خلّد التاريخ ذكرَ العلماء بما خطّته أقلامهم، لا بطول أعمارهم، فبقيت كتبهم مناراتٍ تهدي، وأقوالهم نبعًا لا ينضب.

ومن تأمل سير أولئك الأعلام علم أن أسرار بركة كتبهم كانت في الإخلاص، والصدق، والتجرّد، والتواضع، وأنهم ما أرادوا بالتصنيف إلا وجه الله وخدمة دينه، فخلّد الله ذكرهم في قلوب عباده.

الفصل الأول: منهج السلف في التأليف

منهج السلف في التأليف يقوم على الإخلاص قبل الإتقان، والعلم قبل التوسع، والنفع قبل الزينة.

كانوا يرون الكتاب بابًا من أبواب الدعوة إلى الله، لا وسيلةً إلى الشهرة أو الكثرة، فكانوا يكتبون بعينٍ على الحق وأخرى على الآخرة.

يتوخون وضوح المعنى على زخرفة اللفظ، ويقصدون الدليل قبل الأسلوب.

ومتى كتب أحدهم لم يزد حرفًا إلا لحاجة، ولا حذف إلا لحكمة، فهم يزنون المعاني بميزان الشريعة لا بميزان الذوق البشري.

كتبهم قليلة العبارات لكنها غزيرة الدلالات، يكتبون للعقل والروح معًا، ولزمنهم ولمن بعدهم.

كانوا يحرصون على ضبط النقل وتحرير الفهم، فيجعلون التأليف امتدادًا لطريق التلقي، فلا يكتب أحدهم إلا بعد أن يتأدب بطلب العلم ويذوق مرارته.

ثم إذا كتب، كتب عن تجربة وإيمان، لا عن تقليد وادعاء.

ومن هنا جاءت كتبهم مباركة خالدة، لأنهم كتبوا بقلوبٍ طيبة قبل أقلامٍ ماهرة، فدوَّنوا العلم ليُتعلَّم لا ليُقال كُتِب.

إنهم يرون الكتاب مسؤولية، والمؤلف أمينًا على ميراث النبوة، فالتأليف عندهم عبادة، والكتابة شهادة.

والخلاصة في ذلك أنهم تحلوا بأمور منها:

الإخلاص أساس العمل العلمي:

كانوا يجعلون الكتابة عبادةً لا صناعة، فيبتغون بها وجه الله وحده، فلا يكتبون رياءً ولا طلبًا لذكرٍ أو جاه، ولذلك بقيت آثارهم حيّةً بعد قرون.

الصدق العلمي قبل البلاغة الأدبية:

يقدّمون صحة المعنى على جمال العبارة، فإن وجدوا تنازعًا بين فصاحة اللفظ وصدق الدليل، اختاروا الحقّ ولو كان في أبسط لفظ.

الاقتصاد في الكلام، والغزارة في المعنى:

لا يكثرون من الصفحات، لكنّهم يملؤونها بالعلم المتين، فعباراتهم موجزة لكنها مشحونة بالتحقيق والتقوى.

وضوح المقصد في التأليف:

لا يكتبون بلا نية محددة، بل يعيّن المؤلف غرضه قبل الكتابة: هل هو تعليم، أو ردٌّ، أو جمع، أو تيسير، أو تذكير؟ فإذا تحدّد المقصد استقامت الطريقة.

الانطلاق من النصوص لا من الآراء:

فكتبهم تدور حول الكتاب والسنة، يفسّرون النصوص ولا يفسّرون بها أهواءهم، ويجعلون النقل أصلًا والعقل خادمًا.

تحرير النقل وتوثيق العلم:

كانوا شديدي التحرّي في نسبة القول لصاحبه، وفي ضبط الحديث بسنده ولفظه، فلا يتساهلون في العزو ولا في التلقي، ويُعدّ الخطأ في النقل عندهم خيانة علمية.

التأليف ثمرةُ التلقّي والتربية:

لا يكتب أحدهم حتى يثبت في مجالس العلم ويجتهد في الطلب، فالتأليف عندهم ليس أول الطريق بل خاتمته، ولذلك جاءت كتبهم ناضجة من التجربة والممارسة.

الزهد في الكثرة والشهرة:

كانوا يكرهون حشو الكتب بلا فائدة، ويرون الإيجاز بركة، كما يكرهون التصنّع في الأسماء والعناوين، فكتبهم خالية من الغرور العلمي.

المنهجية في العرض والبيان:

يبدؤون بالتأصيل ثم التفريع، ويُراعون ترتيب المقاصد على قدر أهميتها، مع عناية بالوضوح والبيان وعدم الإغراب.

التوازن بين العلم والتربية:

فهم لا يكتبون للعقل وحده بل للقلب أيضًا، فيجمعون بين تقرير المسائل وبثّ الإخلاص والخشية، حتى تثمر الكتابة أثرًا إيمانيًّا قبل أن تكون علميًا.

الغيرة على الحق والرد على الباطل:

كتبهم ليست محايدة، بل ناطقة بالحق، يكتبون بعاطفة الغيرة على الدين مع ضبطٍ علميٍّ رصين، فلا يجاملون في دين الله.

الاهتمام بسلامة العقيدة والمنهج:

يجعلون هذا الأساس لكل تأليف، فمهما تنوعت الفنون يبقى الأصل: أن يكون العلم نافعًا يوصل إلى الله على بصيرة.

التدرج في التأليف:

يبدأ أحدهم بصغار المسائل أو المختصرات، فإذا نضج علمه توسّع، وكان لكل مرحلة من عمره كتاب يناسبها، فلا يتعجل الموسوعات قبل ضبط الأصول.

حسن اختيار العنوان والمضمون:

يعنونون كتبهم بما يعبّر عن حقيقتها لا بما يجذب النظر فقط، ويجعلون التسمية خادمة للعلم لا دعاية للكاتب.

التحرير الدقيق للألفاظ والمصطلحات:

يتوخّون اللفظ الشرعي المأثور، ويتجنبون الألفاظ الحادثة الملبّسة، حرصًا على نقاء المعنى وسلامة الفهم.

الحرص على النفع العام:

يكتبون للناس جميعًا، ويراعون مستوى المخاطب، فيجعلون العلم ميسّرًا بلا تفريط، ومتينًا بلا تعقيد.

الإشراف الروحي على العمل:

يعيش المؤلف مع كتابه عبادةً ومجاهدة، فتخرج كتبه بروح الإيمان قبل حروف البيان.

الإقرار بالنقص وترك الغرور العلمي:

إذا فرغوا من الكتاب حمدوا الله واستغفروه، فلا يزعم أحدهم الكمال، بل يترك باب النقد مفتوحًا لمن بعده.

استدامة المراجعة والتحقيق:

يراجعون كتبهم ويهذّبونها لأنهم يرون العلم حيًّا لا يتجمّد، ومنه يتولّد مزيد الفهم والنضج.

البصيرة في ترتيب الأولويات العلمية:

فلا يشتغلون بالتكلفات، بل يقدّمون ما يمسّ حاجة الأمة من العقيدة والعبادة والعلم النافع.

الباب السادس:
ضوابط النشر والإخراج

إذا كان التأليف عبادةً قلبيّةً وعقليةً، فإن نشر الكتاب عبادةٌ تتعلق بحقوق الآخرين، من قرّاءٍ ومراجعين وناشرين.

ولهذا كان من تمام الأمانة أن يُراجع المؤلف عمله، ويعرضه على أهل العلم، ويتثبّت من إخراجه، فلا يخرج إلى الناس إلا كتابٌ يخلو من الأخطاء الظاهرة، واضحُ المنهج، جميلُ العرض.

الفصل الأول: قبل النشر والطباعة.

إن الكلمة قبل أن تُنشر مسؤولية، والكتاب قبل أن يُطبع أمانة.

وليس المهم أن يُكتب، بل أن يُتقن، وأن يخرج في ثوبٍ يليق بعظمة العلم الذي يحمله.

فكم من مؤلفٍ حسن النية أساء إلى علمه بسوء عرضه، وكم من كتابٍ ذهبت هيبته بخطأٍ يسيرٍ لم يُراجع.

فالمؤلف الحقّ لا يُسرع إلى النشر كمن يريد الخلاص من الورق، بل يتأنّى كما يتأنّى الزرّاع في حصاد زرعهم، يقلب الصفحات بعين الناقد قبل أن يضعها بين أيدي الناس، ويعلم أن أول قارئ لكتابه هو الله الذي لا

تخفى عليه نية ولا زلة قلم.

فمن رام بركة العلم فليحسن تقديمه، ومن أراد دوام الأثر فليُتقن الصنعة قبل أن تُخرجه المطبعة.

فإن الله يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يُتقنه، وإن من التقوى إحسان الصياغة قبل الطباعة، والمراجعة قبل الإذاعة وإليك بعض الأمور المهمة التي ينبغي الالتزام بها قبل النشر:

المراجعة الدقيقة لغويًا

إن من تمام الضبط والإتقان في التأليف أن يُراجع المؤلف كتابه مراجعةً دقيقة قبل إخراجه إلى الناس، لغويًا وأسلوبًا، فإن الكلمة إذا نُشرت صارت شهادةً لا تُمحى، ومتى خرجت بِلَحنٍ أو خطأٍ بقيت وصمةً على وجه الكتاب وجرحًا في صفحته.

فاللغة ثوبُ المعنى، وجمالُ البيان عنوانُ صاحبه، والتهاون في ضبطها تهوين للعلم وإساءةٌ إلى الفكرة.

وما أكثر ما شوّهت الأخطاءُ اللغويةُ كتبًا نافعة، فضعف قبولها في القلوب وإن صلحت معانيها، إذ اللفظ المهذّب يُحسن موقع الحق في النفس.

فينبغي للمؤلف أن يُعيد النظر في كتابه مرارًا، كأنه يقرأ كلام غيره، فيُقوّم لسانه، ويُنقّح عباراته، ويُصلح ما انكسر من تراكيبه، ويحرص على سلامتة من الزلل، فإن الخطأ اليسير قد يُغيّر المعنى الكبير.

ومن لم يكن قويًّا في اللغة فليستعن بعارفٍ بصناعتها، فما نقص المؤلف باستشارة اللغوي، بل زاده ذلك وقارًا وأمانة.

وقد كان العلماء يعرضون مصنفاتهم على أقرانهم قبل نشرها، حرصًا على صفاء اللفظ وصحة المعنى، لأن العلم لا يُستحسن بصدوره فحسب، بل بإحكامه وإتقانه أيضًا.

ولْيَعلم الكاتب أن عيبه في تصحيح نفسه خيرٌ له من أن يصححه غيره علنًا، وأن الورقة التي تُمحى فيها الزلة قبل الطباعة أحبّ إلى الله من ألف نسخةٍ تنتشر بخطأٍ يُضل أو يُسقط المهابة عن الكتاب.

عرض الكتاب على من يحُسن النقد

من تمام التوفيق في التأليف أن يعرض المؤلفُ عملَه على من يُحسن النظر فيه من العلماء، والمحققين، وأرباب الخبرة، فإن العيون تتفاوت في التمييز، وما خفي على بصرك قد يراه غيرك من أول نظرة.

فالعرض على النقّاد والعلماء من آكد أسباب جودة الكتاب وسلامة منهجه، إذ لا يُدرَك كمال العمل من صاحبه وحده، بل يُستَخرج تمامه بمشورة أهل الفهم والبصيرة.

وكم من مؤلفٍ غفل عن موطن ضعفٍ في عبارته، فرآه غيرُه فسدّده، أو وَهِمَ في نقلٍ فنبهه عليه، فكان النقد في حقه نعمةً ورحمةً، لا نقمةً ولا مذلة.

والمؤلف الحقّ لا يأنف من المراجعة، ولا يغضب من التصويب، بل

يفرح بمن نبّهه على خطئه، ويعدّه شـريكًا في الأجر، فإن من دلّك على عيبك فقد زانك، ومن ستره عنك فقد خانك.

فالنقدُ الصـادق ميزانُ الإنصـاف، وهو مرآةُ العاقل التي يرى فيها ما لا يُبصره في نفسه.

ومن تواضع للحق زاده الله رفعة، ومن استنكف عن النصيحة ألبسه الله ثوب الغرور، فلا يراه الناس بعد ذلك إلا صغيرًا وإن كتب المجلدات.

التحرز من الأخطاء المطبعية والإملائية

من أهم المهمات للمؤلف قبل إخراج كتابه إلى الطباعة أن يتحرّز غاية التحرّز من الأخطـاء المطبعيـة والإملائيـة؛ فـإن اللفظ المصـحَّف يغيّر المعنى، والخطأ اليسير قد يُضعف هيبة الكتاب وإن كان علمه رصينًا.

فاللحنُ يفسـد رونق المعنى، ويُذهب الثقة بالكاتب، ويُشـعر القارئ بالإهمال، ومتى فسـد اللفظ ضـاع حسـن المقصـد، لأن البيان الضـعيف يُوهِن الحق القوي.

ولهذا ينبغي للمؤلف أن يُراجع كتابه بنفسه مراجعةً متأنّية بعد اكتماله، يقرأه قراءة القارئ لا الكاتب، ثم يكلّف بعد ذلك من له بصـرٌ باللغة والإملاء فإنّ العين تكلّ، والكاتب مهما أحسـن قد يغفل عن سـهوٍ يسـيرٍ يفسد سطرًا كاملًا.

وتصـحيح الأخطاء بعد الطباعة مكلفٌ في المال، مؤلمٌ في النفس، وقد يُذهب ثقة القرّاء بجهدٍ عظيمٍ بُذل في سنين.

فليجعل المؤلف التدقيقَ قبل النشر فريضةً أدبية، وعادةً علمية لا يُفرّط فيها.

خلاصة الأدب في هذا الأمر:

ينبغي للمؤلف أن يتأدب مع مخطوطه كما يتأدب التلميذ مع أستاذه، فهو ثمرةُ فكره، ونتاجُ أيامه ولياليه.

فليحمله بحبٍّ وتؤدة، وليتأنَّ في مراجعته قبل نشره، فإنّ العجلة في إخراج الكتاب من علامات ضعف التثبّت ونقص الصبر العلمي.

والعلم لا يزكو إلا في حضن التأني.

وليكن ديدنه المراجعة المتكرّرة، فإن كل قراءة تُخرج له خطأً كان خفيًّا، أو تضيف معنى كان غائبًا.

فلا يظنّ المؤلف أن كتابه اكتمل ما لم يقرأه بعد حينٍ بعينٍ أخرى وقلبٍ هادئ، فالنفس ترى النقص بعد الهدوء أكثر مما تراه في ساعة الحماسة.

وعليه أن يستشير من يثق بدينه وعقله، فإن نظر الناقد البصير مرآةٌ صادقة، وما نقص علمُ رجلٍ قبل مشورة، ولا زاد كبرُ من قَبِل التصويب.

فالمؤلف الصادق يفرح بمن نبّهه لا بمن مدحه، لأن غايته إصلاح العلم لا تحسين الصورة.

ومن الأدب أيضًا أن يدعو الله أن يبارك في علمه، وأن يُريه عيوب عمله قبل أن يراه الناس، فكم من مؤلفٍ غفل عن عيبٍ صغيرٍ فشوّه كتابه، وكم

من مخلصٍ أصلح الله خطأه قبل أن يُطبع.

وليحذر المؤلف من الغرور بجهده، فإنّ طول المخالطة للمخطوط قد يُورث في النفس زهوًا خفيًّا، فيُقال في سره: «هذا عملي!»، فيغيب عنه أن الفضل كله لله، وأن القلم عبدٌ لا سيّد.

ومن شكر الله على التوفيق أن يُكثر الاستغفار بعد الكتابة كما يُكثره المصلي بعد الصلاة.

الفصل الثاني: في إخراج الكتاب

حسن اختيار العنوان والتصميم

ينبغي للمؤلف أن يُحسن اختيار عنوان كتابه كما يُحسن صياغة فكرته، فالاسم بابُ الدخول إلى المضمون، وهو أوّل ما تقع عليه عين القارئ.

فليكن العنوان صادقًا في الدلالة، واضحًا في المعنى، جامعًا للمقصود من غير تكلفٍ ولا غموض.

فالعناوين المبالغ فيها أو المتصنعة تُضعف هيبة العلم، وتُظهر صاحبها في مقام من أراد الإبهار لا الإفادة.

والسلف رحمهم الله كانت عناوين كتبهم بسيطةً لكنها خالدة، لا زخرف فيها ولا غموض، وإنما القوة في وضوحها وصدقها.

وأما التصميم والإخراج، فليكن جميلاً بقدر الحاجة، لا مبالغًا فيه حتى يطغى الشكل على المضمون.

فالقارئ إن وجد الجمال البسيط الذي يبعث الطمأنينة إلى النفس، أقبل على المحتوى بعقلٍ حاضرٍ وقلبٍ مطمئن.

والحقّ أن حسن التنسيق والترتيب من محاسن العمل، لكن لا يُبتغى بها الزينة وحدها، بل تُجعل وسيلةً لتيسير الانتفاع بالعلم.

وأجمل الكتب ما جمع بين وضوح العنوان، وحسن التبويب، وجمالٍ هادئٍ يليق بجلال العلم.

صفات غلاف الكتاب النافع

الغلاف وجه الكتاب، والوجه مرآة صاحبه، فليكن الغلاف ناطقًا بالوقار كما ينطق المضمون بالعلم.

ومن صفات الغلاف النافع أن يكون بسيطًا في شكله، واضحًا في عنوانه، منسجمًا في ألوانه، بعيدًا عن المبالغة والزخرفة المفرطة.

فخير الغلاف ما دلّ على الكتاب ولم يزاحمه، وأشار إلى مضمونه دون أن يتكلّف في الجمال.

ومن صفاته أيضًا أن يُبرز العنوان بخطٍّ واضحٍ مقروءٍ يناسب هيبة العلم، وأن يُكتب اسم المؤلف بخطٍّ أصغر تحته، لأن المقصود هو العلم لا الاسم.

ويُستحسن أن يُذكر بحاشية تعريفية تحت العنوان ملخص ما يحتويه العنوان والرسالة.

كما يُراعى في الغلاف حسن الترتيب والتوازن، بحيث لا تزدحم فيه

الكلمات ولا تكثر فيه الشعارات، بل يكون متزنًا في مساحاته، نظيفًا من المبالغة، خاليًا من الصور التي لا تليق بمقام العلم الشرعي.

وينبغي أن يحمل الغلاف نَفَسَ الكتاب وروحه، فإن كان علميًا جادًا فليكن تصميمه وقورًا، وإن كان تربويًا لطيفًا فليكن رقيقًا دون خفة.

فالمؤلف الحكيم يجعل الغلاف ترجمان فكرته، وأول رسالة صامتة يبعث بها إلى القارئ قبل أن يقرأ سطرًا واحدًا.

أخطاء المؤلفين في عناوين كتبهم وتصاميمهم

ومن الأخطاء التي يقع فيها بعض المؤلفين في هذا الزمان: المبالغة في العناوين، فيجعلها طويلةً أو مزخرفةً أو مليئةً بالألفاظ الغريبة التي تُغري النظر وتُضعف الدلالة.

والعنوان في أصله مرآةٌ للعلم، فإذا أُغرق في الزخرف ضاع المقصد.

ومن الخطأ أيضًا أن يعطى الكتاب بعنوانًا لا يطابق محتواه، فيُوهم القارئ شيئًا ثم يجد غيره، وذلك من خيانة المعنى وإن لم يقصدها المؤلف.

ومن الأخطاء كذلك أن يتصدر اسم المؤلف غلاف الكتاب بسطوعٍ يطغى على العنوان، فيبدو كأن القصد تلميع الاسم لا نشر العلم، والعلم لا يعلو إلا ببركته لا ببريق الغلاف.

ومنهم من يجعل الغلاف ميدانًا للألوان الزاهية والصور الملفتة حتى يُظن الكتاب دعايةً لا دعوة، وهذا من آفات المظاهر التي تصرف القلوب

عن المضمون.

كما يقع بعضهم في الإفراط في الزينة الطباعية: خطوط متعددة، زخارف زائدة، أو رموز أجنبية لا تمت لهيئة العلم بصلة.

ومثل هذه المبالغات تُضعف المهابة العلمية وتذهب روح الوقار.

والعبرة أن يكون التصميم وسيلةً لتيسير القراءة وتنظيم المادة، لا غايةً في ذاته.

فليتذكّر المؤلف أن كتب السلف لم تكن تملك إلا حبرًا وورقًا خشنًا، ومع ذلك ما زالت تتلألأ نورًا وخلودًا إلى اليوم، بينما كثير من الكتب المزخرفة اليوم لا تعيش عمر صاحبها.

فليكن شعار الكاتب: «قيمة الكتاب في علمه لا في غلافه، وفي صدقه لا في لونه».

العناية بالترتيب والفهرسة

الترتيب في التأليف دليل على نضج الفهم، ونورٌ يهدي القارئ إلى مراد المؤلف.

فليُعنَ الكاتب بترتيب الأبواب والفصول ترتيبًا منطقيًّا متسلسلًا، يبدأ فيه بالأصول قبل الفروع، وبالتمهيد قبل التفصيل، وبالأهمّ قبل المهمّ.

فإنّ التقديم والتأخير من دقائق الحكمة في صناعة الكتب، ومن أخلّ به أضاع على القارئ جمال المنهج وإن صحّ المضمون.

أما الفهرسة فهي لسان الكتاب الثاني، بها يعرف القارئ مواضع

المسائل ويُحسن الرجوع إلى النصوص.

فليجعل المؤلف فهرسًا دقيقًا واضحًا في آخر الكتاب، مرتبًا على عناوين الأبواب والموضوعات، لا يُكثِر فيه ولا يُهمِل، بل يجعل القارئ يطمئن أنه بين يدي كتابٍ منظمٍ يُسهل عليه المراجعة.

والفهرس كالمفتاح، لا يُستغنى عنه إذا أُريد الانتفاع الكامل بالكتاب.

وينبغي أن تكون عناوين الأبواب والفصول مختصرةً معبّرةً، ظاهرةً بتمييزٍ طباعي، ويُستحسن استعمال الترقيم أو التبويب بالحروف على نحوٍ منسقٍ متناسب، لئلا يضيع القارئ بين الصفحات.

فحسن الترتيب دليل على عقلٍ منظمٍ، وسَعة الفهرسة عنوان على أمانةٍ علميةٍ ورغبةٍ في نفع الناس.

وقد كان السلف رحمهم الله شديدي العناية بترتيب مصنّفاتهم على وجهٍ يسهل الفهم، فترى كتبهم تُقرأ بيسرٍ كأنها حديثٌ متصل، حتى مع قلة أدواتهم ووسائلهم.

أما اليوم، فوفرة الوسائل تقتضي مزيد دقةٍ ونظامٍ، فلتكن فهارس المؤلفين خادمةً لكتبهم كما كانت نياتهم خالصةً لربهم.

طباعة الكتاب دون التعلق بمظاهر الفخامة

فليعلم المؤلف أن جمال الكتاب في صدقه لا في غلافه، وأن بركته في مضمونه لا في زخرفته.

فما نفع الأمة كتابٌ نُسج بذهب الحروف إذا خلا من روح العلم

والإخلاص؟

إن الفخامة الزائدة تُلهي القارئ عن المقصد، وتُشعر الكاتب بالعُجب والترف، فينطفئ أثره وإن تلألأ مظهره.

وكم من كتابٍ بسيط الإخراج، قليل الكلفة، حمل في طياته من النور ما أحيا الله به قلوبًا غافلة، وكم من مطبوعٍ مزخرفٍ مطليٍّ بالمدح، لم يبقَ له في الدنيا إلا صورته.

فالقيمة ليست في لون الورق، بل في صفاء القصد، ولا في جودة الطباعة، بل في صدق المعنى.

فليُبادر المؤلف إلى طباعة كتابه متى استوفى شروطه العلمية، ولا يجعله حبيس الأدراج ينتظر طبعةً فاخرةً أو إخراجًا باذخًا، فكم من باحثٍ أضاع عمره في التردّد حتى أدركه الموت ولم يُخرج علمه للناس.

إنّ العلم إن حُبس بطل نفعه، وإن نُشر نمت بركته، ولو كان إخراجه في أوراقٍ عاديةٍ أو في نسخٍ محدودة.

فالمقصود نفع الأمة لا إرضاء الذوق الطباعي.

ومن صدق الله في نشر علمه، يسّر الله له من يخدمه ويُتمّ عمله بأحسن صورة، فإنّ الله لا يضيع أجر من أحسن نيةً وعملاً.

ولنا في سلف الأمة أبلغ شاهد: فكم من كتبٍ عظيمةٍ خطّها العلماء بأيديهم على جلودٍ وورقٍ خشنٍ، ونسخها النساخ في ظلال القناديل، لا يعرفون من الزينة إلا سطور الإيمان، ومع ذلك فهي اليوم تُطبع في أفخم

الطبعات العالمية وتُقرأ في أرجاء الأرض.

فالعبرة ليست بالبداية المزيّنة، بل بالنية الصادقة التي تُورث الرفعة بعد حين.

فليبادر المؤلف إلى نشر علمه على أي وجهٍ ميسور، فإنّ الكلمة الصادقة لا تموت، والله هو الذي يبعثها في القلوب متى شاء وكيف شاء.

إخراج نسخة أولية وملازم احتياطية

كم من مؤلفٍ أفنى سنواتٍ في جمع مادته، ثم ضاع جهده في لحظةٍ بسبب انكسار جهازٍ أو تلف ملفٍّ أو نسيان نسخةٍ إلكترونيةٍ لم تُحفظ!

والعاقل من تعلّم من غيره قبل أن يُجرّب بنفسه.

فليحرص المؤلف على أن يُخرج نسخةً أولية مطبوعة على الورق، يراجعها بنفسه ويدوّن عليها الملاحظات، فهي مرجعٌ عند المراجعة أو التعديل، وسندٌ عند وقوع الطوارئ.

وليحرص كذلك على إعداد ملازم احتياطية تحفظ مادته العلمية من الضياع، ولو كانت في ملفاتٍ خارجيةٍ أو نسخٍ سحابيةٍ أو صورٍ ورقيةٍ مجلّدة.

فالمؤلف الحصيف لا يركن إلى وسيلةٍ واحدة، لأن الحوادث لا تستأذن أحدًا، والجهد العلمي أمانةٌ لا يجوز التفريط فيها.

وما أجمل أن يُعامل الكاتب كتابه كما يُعامل العالم تلميذه: يخاف عليه، ويُراجع له، ويُكرّر النظر فيه حتى يطمئن إلى سلامته.

ولقد كان العلماء الأوائل يكتبون كتبهم بخطّ اليد، ويُخرِجون منها نسخًا ينسخها التلاميذ على الرقاع والجلود، فحُفظت تلك الكنوز رغم بدائية الوسائل.

أما اليوم، فقد كثرت الوسائل وقلّ الاحتياط! فليكن للمؤلف من تلك العزيمة نصيب، ومن ذلك الورع العلمي أثر.

فنسخةٌ أوليةٌ محفوظةٌ خيرٌ من مجلداتٍ ضاعت بخلل جهاز، وملازمُ بسيطةٌ أصدقُ وفاءً من ملفاتٍ لم يُكتب لها البقاء.

والعبرة ليست بكثرة الوسائط، وإنما بيقظة القلب، وحرص صاحبه على صيانة علمٍ هو أمانة بين يديه.

الفصل الثالث: بعد النشر

إذا انتهى المؤلف من طباعة كتابه، فليس قد فرغ من عمله، بل بدأ فصلًا جديدًا من مسؤوليته؛ فالنشر لا يعني الارتياح، بل يعني الوقوف في ساحة النقد والتقويم.

فالكتاب بعد خروجه من يد مؤلفه يصبح ملكًا للأمة، تتداوله العقول، وتتناقله الألسن، وتُعرض صفحاته على ميزان العلم والإنصاف، فإن كان صادق النية قبل المطبعة، فليكن واسع الصدر بعدها.

فما نُشر للناس لا يُصان إلا بالتواضع لهم، ومن ظن أنه أتمّ الكمال فقد نقص، ومن رأى في نقد الناس عيبًا فيهم لا في نفسه فقد حُجب عن باب العلم.

إن الكاتب الصادق يرى في الملاحظات هدايا، وفي النقد مرايا، وفي التصويب رحمة، لأن غايته تقويم الفكرة لا تزويق الاسم، ونفع الأمة لا مدح النفس.

فمن حمد الله بعد النشر أكثر من حمده عند النشر، علم أنه كتب لله، لا للثناء ولا للثناء عليه فمما ينبغي الالتزام به أمور:

قبول النقد بصدر رحب

من تمام أدب المؤلف بعد نشر كتابه أن يتلقّى الملاحظات والنقد برحابة صدر، فليس الغرض من النشر إعلان العصمة، وإنما دعوةٌ إلى المشاركة في إصلاح العلم ونفع الأمة.

والعاقل يعلم أن النقد الهادف هدية لا تهديد، وأن من نبّهه إلى خطأٍ فقد أسدى له معروفًا لا يقدَّر بثمن.

فليكن المؤلف في مقام المتعلّم بعد النشر، كما كان معلِّمًا قبل النشر، وليؤمن أن القلم لا يعصم صاحبه من الزلل، وأن الكتاب وإن بلغ الغاية في التحقيق يبقى عملًا بشريًا قابلًا للمراجعة.

وقد قيل: «من راجع الناس في علمه زاد علمًا، ومن أعجب برأيه بقي جاهلًا».

وليُفرّق بين نقدٍ بنّاءٍ يقصِد إصلاح العلم، ونقدٍ هدّامٍ يقصِد الإساءة؛ فالأول يُقبل بالشكر، والثاني يُتجاوز بالعفو.

ولا يليق بطالب علمٍ أن يقابل كل اعتراضٍ بالدفاع المستميت، ولا

كل ملاحظةٍ بالخصومة، بل يحمد الله أن جعل من إخوانه من يُبصره بعيبه قبل فوات الأوان.

فليجعل المؤلف من نقد الناس وسيلةً للتكميل لا سببًا للتعصّب، وليعلم أن سعة الصدر بعد النشر أبلغ برهانٍ على الإخلاص، إذ لا يتأذى من النقد إلا من كتب لنفسه، وأما من كتب لله فإنه يشكر من أصلح عمله ولو بكلمة.

عدم حبس العلم (تحذير من غلول الكتب)

من أخطر ما يُبتلى به بعض المؤلفين بعد نشر كتبهم أن يُصابوا بداء الاحتكار العلمي، فيمسكون بما عندهم عن الناس، أو يضيّقون طريق الانتفاع به خوفًا على الحقوق أو رغبةً في الشهرة.

وهذا في حقيقته لونٌ من غلول الكتب، لأن العلم إذا حُبس ضاع أثره، ومنع الخير عن مستحقّه.

وقد جاء عند الزهري رَحِمَهُ اللَّهُ كما في «معجم ابن المقرئ» (ص٢٨٧) أنه قال: «يَا يُونُسُ إِيَّاكَ وَغُلُولَ الْكُتُبِ، قُلْتُ: وَمَا غُلُولُهَا؟ قَالَ: حَبْسُهَا عَنْ أَهْلِهَا» اهـ.

فالعلم أمانةٌ في يد صاحبه، ومتى كتب المؤلف كتابًا فقد حمّل نفسه عهدًا أن يوصله إلى الناس، ولو بقدر استطاعته.

وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ عَلِمَهُ ثُمَّ كَتَمَهُ،

أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ»(١)

فكيف بمن جمع علمًا ثم كبّله بقيود التردد والمصلحة؟!

فليحذر المؤلف أن يجعل كتابه وسيلةً للكسب وحده، أو أن يمنع نسخه أو نشره في وجوه طلاب العلم الصادقين، فإنّ الأجر الحقيقي ليس في عدد النسخ المبيعة، بل في عدد القلوب التي انتفعت به.

وربّ كتابٍ نُشر بلا مقابل فبارك الله فيه، وآخر حُبس طلبًا للمال فذهب أثره وبقي وزره.

وما علماؤنا الأوائل إلا قدوة في هذا الباب، فقد كانوا ينسخون كتبهم بأيديهم ثم يُبيحونها لطلاب العلم من غير قيدٍ ولا شرط، وبعضهم أوقف كتبه في المساجد والربط، لا يريدون إلا وجه الله.

ومنهم من كتب في الرقاع والجلود والورق الخشن، فلم تمنعهم قلّة الوسائل من بثّ العلم، فخلّد الله ذكرهم ورفع شأن كتبهم حتى صارت اليوم في أفخر الطبعات وأجمل الإخراجات، لأنهم ما أرادوا بها الدنيا، وإنما أرادوا بها وجه الله.

فالذي ينبغي على المؤلف أن يجعل نشر العلم من القربات الدائمة، وأن يستشعر أنه مؤتمن على ما جمع، فإن منع النفع عنه فقد خان الأمانة.

وليعلم أن من نشر كتابه لله أورثه الله بركة في عمره وعلمه، وأحيا ذكره بقدر صدقه، وأن من غلّ علمه غُلّ بذنبه يوم العرض.

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٤٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وصححه الإمام الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ١٦٠).

فحريٌّ بالمؤلف أن ينشـر علمه، لا أن يحجبه انتظارًا للطباعة الفاخرة أو الدعم المالي، فالعلم دين، ومن بخل به فقد ظلم نفسه.

متابعة جديد المؤلفات

فالمؤلف الذي يريد التجديد والتكميل ينبغي له أن يطّلع على ما يصـدر من كتبٍ في مجاله، ليكمل النقص أو يصـحح الخطأ، أو يضـيف الجديد.

فمن تمام فقه المؤلف وبعد نظره أن يطّلع على ما يُسـتجد من كتبٍ وأبحاثٍ في ميدانه، فإن العلم لا يقف عند جيلٍ ولا ينتهي بزمن.

فالمتابعة تفتح له آفاقًا جديدة، وتجنّبه تكرار ما أُلِّف، فيصـرف جهده إلى ما لم يُخدم بعد، فيُضيف بدل أن يُعيد.

ومن ثمرات الاطلاع أن يعرف المؤلف مدى اسـتيعاب الموضـوع في المؤلفات السـابقة، فإن وجده قد اسـتُوفي بحثًا وبيانًا، علم أن الباب قد خُدم حقّ الخدمة، فانتقل إلى غيره مما هو أولى بالنفع.

وبهذا يحسـن توجيه طاقته إلى ميادين تحتاج مزيد تحريرٍ أو تقريبٍ أو تحقيق.

أما إن وجد نقصًـا أو خطأ أو سـطحية، كان من تمام الخدمة أن يُكمّل أو يُصحّح، وبذلك يتعاون المؤلفون على إحياء العلم.

إنّ من آفات بعض المؤلفين أنهم يشرعون في كتابة موضوعاتٍ سبق أن أُشـبعت بحثًا، لأنهم لم يطّلعوا على جديد المصـنفات، فيكرّرون الجهود

ويضيعون الأوقات.

أما المتابع البصير، فإنه قبل أن يكتب يسأل نفسه: هل أضيف جديدًا؟ هل خُدم هذا الباب بما يغني القارئ؟ فإن رأى الاكتفاء ترك، وإن رأى الحاجة كتب، فكان تأليفه على بصيرةٍ وميزان.

والمؤلف الذي يتابع الجديد يعيش مع الحركة العلمية الواعية، لا بمعنى التسابق في النشر، بل بمعنى الفقه في توزيع الجهد، فيكتب حيث الحاجة، ويصمت حيث الكفاية.

وهكذا يكون التأليف عبادةً قائمةً على فقهٍ ونظرٍ، لا على تكرارٍ واجتهادٍ مكرور.

الباب السابع:
خلاصة آداب المؤلف وأخلاقه

لقد كان العلماء الأوائل يربّون أنفسهم بالعلم قبل أن يربّوا به الناس، ويتأدّبون مع العلماء قبل أن يجادلوا الخصوم.

وكانوا يرون أن القلم الذي يخطّ كلمات العلم لا يجوز أن يُخطّ به ما يخالف التواضع والصدق والرحمة.

ولهذا الباب منزلة عظيمة في مسيرة التأليف، إذ يُكمّل صورة المؤلف المسلم: علمًا وسلوكًا، خُلقًا وموقفًا، أدبًا وغايةً.

إن العلم بلا أدبٍ جمودٌ، والتأليف بلا خلقٍ خيانة، فكما أن القلم أداة البيان، فالأخلاق روح البيان.

والمؤلف إنما يُعرف بخُلقه قبل حرفه، فإن زلّ خلقه لم ينفعه علمه، وإن سمت نفسه أشرق قلمه، وخرجت كلماته على نورٍ من الله.

فآداب المؤلف ليست ترفًا علميًا ولا زينةً لفظية، بل هي أصل في صلاح العلم وانتفاع الناس به.

وقد كان السلف رحمهم الله يجعلون الأدب مقدَّمًا على العلم، ويقولون: تعلّمنا الأدب قبل أن نتعلّم العلم».

فمن تهذّب سلوكه طاب علمه، ومن فسد قلبه أظلمت صفحاته ولو كَثُرت مؤلفاته.

والمؤلف الحقّ هو الذي يرى نفسه خادمًا للعلم، لا سيّدًا عليه؛ يحمل في قلبه تواضع الطالب مع يقين العالم، ويستشعر أن كتابه عبادةٌ تُسجّل في صحيفته، فإن كتب بصدقٍ رفعه الله، وإن كتب طلبًا للمدح أذلّه الله.

وسيُذكر في هذا الباب جملةٌ من أهمّ الأخلاق والآداب التي تليق بالمؤلف السائر على منهج السلف:

الفصل الأول: الإخلاص لله في القول والعمل

عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال:

«إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»(١)

وقال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ:

«قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»(٢)

الإخلاص هو سرّ البركة في كل مؤلَّف، وهو المعيار الحقيقي لقبول العمل وردّه.

فليكتب المؤلف وهو يستشعر أن كلماته تُرفع إلى السماء قبل أن

---

(١) متفق عليه رواه البخاري (١) ومسلم (١٩٠٧)

(٢) رواه مسلم (٢٩٨٨).

تُعرض على القراء، وأن الله مطّلع على مقصده قبل أن يُطبع كتابه.

فمن كتب لله أجره الله ولو لم يُقرأ، ومن كتب لغيره حُرم البركة ولو انتشر.

والإخلاص لا يُعرف بكثرة القول «لله»، بل بثبات النية عند المدح والذم، والسرّ والعلانية.

فإن العمل لا يزكو إلا بالإخلاص، ولا يبارك فيه إلا إذا سلم من شوائب الرياء وحب الظهور.

وقد جاء عن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أنه قال:

«لَأُلْفِيَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ فَيَجْعَلُهَا اللهُ هَبَاءً مَنْثُورًا»

فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، صِفْهُمْ لَنَا لِكَيْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ.

فَقَالَ: «أَمَا إِنَّهُمْ مِنْ إِخْوَانِكُمْ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللهِ انْتَهَكُوهَا»(١).

فانظر ـ رحمك الله ـ كيف ضاع عمل أولئك مع صلاح ظاهرهم، لأن نياتهم لم تصفُ لله، ولم يجاهدوا أنفسهم على الصدق معه.

فلا تُخْزِ نفسك أيها المسلم المؤلف، ولا تجرّها إلى المهانة يوم القيامة بعملٍ أردتَ به مدح الناس أو رفعة المنزلة.

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٤٥)، وصححه العلامة الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢/ ٣٢)، والإمام الوادعي في «الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين» (١/ ١٥٩).

فقد جاء عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ:

«مَنْ سَمَّعَ النَّاسَ بِعَمَلِهِ سَمَّعَ اللهُ بِهِ سَامِعَ خَلْقِهِ وَصَغَّرَهُ وَحَقَّرَهُ»

قَالَ: فَذَرَفَتْ عَيْنَا عَبْدِ اللهِ»(١).

فأنصح نفسي وإياك أيها الباحث المؤلف أن تنجو بنفسك، وذلك بالإخلاص لله فيما تكتب، فلا تبتغِ بكتابتك مدحًا ولا سمعة، بل اجعلها خالصةً لوجهه الكريم، ترجو بها ثواب الآخرة، فإن العمل إذا خَلُص نفع، وإذا شابَه رياءٌ خاب وضاع.

الفصل الثاني: التواضع العلمي ونبذ الكبر

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾ [لقمان: ١٨].

وقال الله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [سورة الأعراف:١٤٦].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال:

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٧٠٤٥)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٦/ ١٤٠).

«وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ»(١)

من ظنّ أنه أحاط بالعلم فقد جهل، ومن عرف قدر نفسه علم أن العلم أوسع من أن يُحاط به.

فليكن المؤلف متواضعًا في تعامله مع علمه وقرائه، لا يرى نفسه فوق النقد، ولا كتابه فوق المراجعة.

وما ازداد العالم علمًا إلا ازداد تواضعًا، لأن العلم الحق يورث خضوعًا لا خيلاء، ومن رفعه علمه خفضه كبره.

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «زاد المعاد في هدي خير العباد - ط عطاءات العلم» (٢/ ٥٥٠):

وليحذَرْ كلَّ الحذر من طغيان «أنا» و «لي» و «عندي»، فإنَّ هذه الألفاظ الثَّلاثة ابتُلِي بها إبليس وفرعون وقارونُ، فـ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ لإبليس، و﴿لِي مُلۡكُ مِصۡرَ﴾ لفرعون، و﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ لقارون.

وأحسنُ ما وُضِعَتْ «أنا» في قول العبد: أنا العبد المذنب، الخَطّاء، المستغفر، المعترف ونحوه.

و«لي» في قوله: لي الذَّنب، ولي الجرمُ، ولي الفقر والمسكنة.

و«عندي» في قوله: «اغفِرْ لي جِدِّي وهَزْلي وخطئي وعَمْدي، وكلُّ ذلك عندي» اهـ.

---

(١) رواه مسلم في «صحيحه» رقم (٢٥٨٨).

الفصل الثالث: الإنصاف في النقل والحكم

الإنصاف هو ميزان العدل الذي يُعرف به صدق المؤلف وعدله، فمن جار في النقل خان الأمانة، ومن تحامل في الحكم أفسد البرهان.

والباحث الرباني لا يجعل القلم خادمًا لهواه، بل ناطقًا بالحق ولو على نفسه.

فليعرض المؤلف أقوال المخالفين كما هي دون تحريف، وليزنها بميزان العلم والحق لا بميزان العصبية، فإن الحق لا يُعرف بالرجال، وإنما يُعرف الرجال بالحق.

والإنصاف خُلُق العلماء الصادقين، وهو أبهى ما يُزيّن طالب العلم في التأليف والرد.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة: ٨].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [النساء: ٥٨].

وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال:

«إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ،

وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا»(١)

الفصل الرابع: الأمانة العلمية والتحرّي في النقل

الأمانة العلمية هي أساس الثقة بين المؤلف وقرّائه، ومن ضيّعها فقد خان القلم والعلم معًا.

فليتحرَّ المؤلف الدقّة في النقل، وليذكر المصادر بإنصاف، ولا ينسب قولًا إلا بعد التثبت، فإن الكلمة أمانة، والكتابة شهادةٌ لا يُقبل فيها الهوى.

ومن نقل بغير تحقيق أفسد على الناس العلم، ومن نسب بغير أمانة خان الحق وأهله.

والمؤلف الصادق يجعل الله في قلمه نورًا لأنّه لا يقول إلا ما يعتقد صحّته، ولا يدوّن إلا ما يغلب على ظنه صدقه.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ٥٨﴾ [النساء: ٥٨].

وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧﴾ [الأنفال: ٢٧].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: بَيْنَمَا النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ، جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ فَمَضَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يُحَدِّثُ.

---

(١) رواه مسلم في «صحيحه» رقم (١٨٢٧).

فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: سَمِعَ مَا قَالَ، فَكَرِهَ مَا قَالَ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ لَمْ يَسْمَعْ.

حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ قَالَ: «أَيْنَ أُرَاهُ السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ».

قَالَ: هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «فَإِذَا ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ».

قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟

قَالَ: «إِذَا وُسِّدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»(١).

الفصل الخامس: الرفق بالمنتقدين والمخالفين

لا يخلو مؤلف من خطأ، ولا كاتب من نقص، فالكمال لله وحده.

والمؤلف الحكيم من تلقّى النقد بصدرٍ رحبٍ، ولم يجعل من الردّ معركة كبرياء، بل ساحة تكميل وتصحيح.

والرفق بالمخالف من أدب العالم الصادق، فإن الشدّة في الجدل لا تُثمر علمًا، والرفق في الردّ أبلغ في الإقناع من القسوة.

وإذا انتُقد الكتاب فليتأمل صاحبه في النقد قبل أن يتعجل الردّ، فما كُتب لله لا يضره عيب الناس، وما كُتب للناس لا ينفعه مدحهم.

قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا

(١) رواه البخاري في «صحيحه» رقم (٦٤٩٦).

ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: ٣٤-٣٥].

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال:

«إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ»(١)

الفصل السادس: شكر من أعان وساهم في الكتاب

الوفاء من أخلاق العلماء، وشكر الناس من شكر الله، فمن أعانه على تأليفه أو راجعه أو دلّه على فائدة فليذكره بخير، فإن الاعتراف بالجميل من شيم الكرام.

والمؤلف الموفّق لا ينسى من أمدّه بمشورة أو دعم، أو من صوّب له خطأً أو نبّهه إلى نقص، بل يذكر ذلك بعبارات المودّة والدعاء، لأن القلوب ترتاح لمن حفظ المعروف، وتنفر ممن جحده.

ومن شكر الله أن تشكر عباده، فإن الكلمة الطيبة صدقة، وشكر الناس من تمام الأدب والعلم.

قال الله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [التوبة: ١٠٥].

وقال الله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن: ٦٠].

---

(١) رواه مسلم في «صحيحه» رقم (٢٥٩٤).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال:

«لَا يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ»(١)

الفصل السابع: التأدب مع العلماء وأصحاب الفضل

من لم يعرف لأهل العلم قدرهم فقد أساء إلى نفسه قبلهم، ومن جهل مكانتهم حُرم بركة علمهم.

فالتأدب مع العلماء أصل من أصول الانتفاع، ومن تجرّأ على العلماء بلسانه أو استخفَّ بفضلهم أظلم قلبه وضاع أثره.

والعاقل إذا خالف عالمًا خالفه بأدبٍ وإنصافٍ، لا بتطاولٍ أو استعلاء، فإن لحوم العلماء مسمومة، وسنة الله جارية فيمن انتقصهم بغير حق.

والتأليف لا يزكو إلا إذا قام على تعظيم حملة الدين، والاعتراف بفضل من سبق في الميدان، لأن العلم ميراث الأنبياء، وأهله ورثتهم.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ۝٩﴾ [سورة الزمر:٩].

وقال الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝١١﴾ [المجادلة: ١١].

وعن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال:

«لَيْسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبِيرَنَا، وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفْ

(١) تقدم تخريجه.

لِعَالِمِنَا حقه»(١)

الفصل الثامن: الزهد في الثناء وحب الظهور

الشـــهرة فتنة، والثناء اختبار، ومن أحب أن يُذكر أكثر مما أحب أن يُخفى فليخَف على نفسه من خيانة النية.

فالمؤلف الصـــادق لا يطلب المدح، ولا يســـعى ليُقال عنه «العالِم» أو «الباحث الكبير»، بل يكتب لله، ويخشى أن يُعجَب بعمله فيضيع ثوابه.

ومن زهِد في الشهرة رفع الله ذكره، ومن طلبها بعمله محق الله أثره.

والعبرة ليست بانتشار الكتاب، ولكن ببركته وصدق مقصده.

قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٨٣].

وقال الله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم: ٣٢].

وعن كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال:

«مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِـــلَا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَـــدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الرَّجُلِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ»(٢)

الفصل التاسع: الاعتراف بالنقص والتقصير

المؤلف الصـــادق مهما كتب، ومهما بلغ من البلاغة والتحقيق، يبقى

(١) رواه أحمد في «المسند» (٥/ ٣٢٣).

(٢) رواه الترمذي رقم (٢٣٧٦).

بشرًا يعتريه النقص، وتغيب عنه أشياء، ويقع في خطأٍ أو قصورٍ لا يسلم منه أحد.

فليعلم أن الكمال لله وحده، وأن جهده مهما عظم لا يخلو من خللٍ أو غفلةٍ أو سهو.

ومن أدب العلماء أن يعترف المرء بقصور عمله، وأن يُلحق به التماسَ العذر والدعاء بالمغفرة، لا أن يغتر بما أبدع أو يُعجب بما كتب.

فمن تواضع لله في علمه وعمله رفعه الله، ومن ظنّ أنه استغنى بعلمه أذلّه الله.

فليكتب المؤلف وهو يوقن أن العبرة ليست بكثرة الصفحات، ولكن بصدق النية وحسن المقصد، وأن ما وفّقه الله إليه من صوابٍ فمنّه وفضله، وما وقع فيه من خطأٍ فمن نفسه وتقصيره.

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ [الإسراء: ٨٥].

وقال الله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ٢٨﴾ [النساء: ٢٨].

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ:

«كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»(١)

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ:

«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ

---

(١) رواه الترمذي في «سننه» رقم (٢٤٩٩) وصححه الإمام الألباني في «صحيح الجامع الصغير وزيادته» (٢/ ٨٣١).

فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ»(١)

وأختم بما جاء في كتاب «كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي» (١/ ٤):

لَمْ آلُ جُهْدًا فِي تَأْلِيفِ هَذَا الْكِتَابِ وَتَرْتِيبِهِ، وَلَمْ أَدَّخِرْ جِدًّا فِي تَسْدِيدِهِ وَتَهْذِيبِهِ، فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَقَعَ فِيهِ عَثْرَةٌ وَزَلَلٌ، وَأَنْ يُوجَدَ فِيهِ خَطَأٌ وَخَطَلٌ، فَلَا يَتَعَجَّبُ الْوَاقِفُ عَلَيْهِ عَنْهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَنْجُو مِنْهُ أَحَدٌ وَلَا يَسْتَنْكِفُهُ بَشَرٌ وَقَدْ رَوَى الْبُوَيْطِيُّ عَنْ الشَّافِعِيِّ - رَحِمَهُ اللهُ - أَنَّهُ قَالَ لَهُ إنِّي صَنَّفْت هَذِهِ الْكُتُبَ فَلَمْ آلُ فِيهَا الصَّوَابَ فَلَا بُدَّ أَنْ يُوجَدَ فِيهَا مَا يُخَالِفُ كِتَابَ اللهِ تَعَالَى وَسُنَّةَ رَسُولِهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَالَ اللهُ تَعَالَى ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢] فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهَا مِمَّا يُخَالِفُ كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ فَإِنِّي رَاجِعٌ عَنْهُ إلَى كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ.

وَقَالَ الْمُزَنِيّ: قَرَأْت كِتَابَ الرِّسَالَةِ عَلَى الشَّافِعِيِّ ثَمَانِينَ مَرَّةً فَمَا مِنْ مَرَّةٍ إلَّا وَكُنَّا نَقِفُ عَلَى خَطَإٍ.

فَقَالَ الشَّافِعِيُّ: هِيهِ أَبَى اللهُ أَنْ يَكُونَ كِتَابٌ صَحِيحًا غَيْرَ كِتَابِهِ فَالْمَأْمُولُ مِمَّنْ وَقَفَ عَلَيْهِ بَعْدَ أَنْ جَانَبَ التَّعَصُّبَ وَالتَّعَسُّفَ وَنَبَذَ وَرَاءَ ظَهْرِهِ التَّكَلُّفَ وَالتَّصَلُّفَ، أَنْ يَسْعَى فِي إصْلَاحِهِ بِقَدْرِ الْوُسْعِ وَالْإِمْكَانِ، أَدَاءً لِحَقِّ الْأُخُوَّةِ فِي الْإِيمَانِ، وَإِحْرَازًا لِحُسْنِ الْأُحْدُوثَةِ بَيْنَ الْأَنَامِ، وَإِدْخَارًا لِجَزِيلِ الْمَثُوبَةِ فِي دَارِ السَّلَامِ، وَاَللهُ الْمُوَفِّقُ وَالْمُثِيبُ عَلَيْهِ أَتَوَكَّلُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ اهـ.

---

(١) رواه مسلم (٢٧٥١).

الفصل العاشر: إحسان الخاتمة بالدعاء والاستغفار

إذا أتمّ المؤلف كتابه فليعلم أن الفضل لله وحده، وأن ما أنجزه لم يكن بحوله ولا قوّته، بل بتوفيق الله وتسديده.

فليختم عمله كما بدأه، بشكرٍ واستغفارٍ واعترافٍ بالعجز عن الوفاء بحقّ العلم.

ومن تمام الأدب أن يختم كتابه بالدعاء أن يجعله الله خالصًا نافعًا، وأن يغفر ما وقع فيه من خطأ أو تقصير، فإن الحرف أمانة، والعلم مسؤولية، والاستغفار جابر للنقص، ومكفّر للزلل.

وليحذر المؤلف أن يعجب بعمله بعد الفراغ منه، فذلك من مداخل الشيطان.

فمن نسب الفضل إلى نفسه حُرم القبول، ومن رآه من الله زاده الله توفيقًا.

قال الله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ ﴾ [النصر: ٣].

وقال الله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النحل: ٥٣].

ينبغي أن يُختم الكتاب كما تُختم الصلاة: بحمدٍ واستغفار، حمدًا لله على التوفيق، واستغفارًا من التقصير.

فمهما بلغ المؤلف من الإتقان، فلن يخلو عمله من خللٍ أو غفلة.

فليُجدّد توبته عند الفراغ، وليعلم أن الخاتمة عبادة، وأن الكتاب إذا خُتم بالاستغفار رُفع إلى الله في صحيفةٍ بيضاء.

الفصل الحادي عشر: الاقتصار على ما يحُسن المؤلف

من كمال العقل أن يعرف المؤلف قدر نفسه، فلا يتكلف ما لا يحسن، ولا يكتب في علمٍ لم يتأهّل له.

فالمؤلف العاقل لا يتصدر في كل فن، ولا يخوض في ما لم يبلغه علمه، بل يقف عند حدود معرفته، ويترك ما جهل لمن هو أعلم به.

ومن صدق مع الله في ذلك رفع الله ذكره، لأن الصدق في العلم أعظم من التوسع فيه بغير حق.

ومن خاض فيما لا يُتقن أفسد أكثر مما أصلح، ومن كتب فيما يعرف نفع وأفاد.

قال الله تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف: ٧٦].

وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦].

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «من أفتى الناس في كل ما يُستفتى فهو مجنون»(١)

(١) رواه البيهقي في «المدخل إلى السنن» (٦٤٣)

الفصل الحادي عشر: الإشادة بمن سبقه في الميدان

من جميل الأدب العلمي أن يُشيد المؤلف بجهود إخوانه من أهل العلم، سواء استفاد من مؤلفاتهم أم لم يستفد، لأن الثناء على أهل الفضل اعترافٌ بجميلهم، وإحياءٌ لروح الأخوّة العلمية.

فكم من عالمٍ كتب في موضوعٍ قريبٍ من غيره، فلم يمنعه ذلك من الثناء عليه، والدعاء له، والإشارة إلى نفع كتبه! ومن سعادة المؤلف أن يرى غيره يخدم العلم في الباب نفسه، فذلك من التعاون على البر والتقوى لا من المنافسة المذمومة.

ومن شكر النعمة أن يُثني على من خدم العلم قبله أو معه، فإن الكتب النافعة كلها تصب في نهرٍ واحد، ومَن عرف هذا المعنى زاد تواضعًا وصدقًا، لأن العلم رحمٌ بين أهله، لا حلبةُ فخرٍ ومنافسة.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾ [الحشر: ١٠].

وقال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ [المائدة: ٢].

وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ:

«مَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُوا بِهِ فَادْعُوا لَهُ

حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ»(١)

وعن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبِيرَنَا، وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفْ لِعَالِمِنَا حقه»(٢)

فالمؤلف إن لم يُجِلّ المؤلفين قبله، فكتابه إلى الزوال أقرب، لأن العلم لا يورَّث إلا لمن تواضع له.

ومن جميل النماذج التي وقفت عليها ما قاله السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ في «مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا» (ص٨):

وأما كتاب القاضي الشفا فقد أبدع فيه كل الإبداع وسلم له أكفاؤه وكفاءته فيه ولم ينازعه أحد في الانفراد ولا أنكروا مزية السبق إليه بل تشوقوا للوقوف عليه وأنصفوا في الاستفادة منه وحمله الناس عنه وطارت نسخه شرقًا وغربًا اهـ.

فتأمل كيف ذكر كتاب القاضي بكل جميل.

الفصل الثاني عشر: الإنصاف وعدم تتبع الزلات

من شيم العلماء وكرم النفوس أن يكون المؤلف منصفًا في أحكامه،

---

(١) رواه أبو داود في «سننه» رقم (١٦٧٢) وصححه الإمام الألباني في «إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل» (٦/ ٦٠) والإمام الوادعي في «الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين» (٥/ ٤٢٦).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٢٢٢٤٨) وحسنه الإمام الألباني في «صحيح الجامع الصغير وزيادته» (٢/ ٩٥٧).

عادلًا في نقده، بعيدًا عن تتبّع عثرات إخوانه أو تضخيم زلاتهم.

فليس الغرض من العلم هدم الناس، ولا التشهير بالمخالفين، وإنما الغرض بيان الحق برفقٍ وعدلٍ، مع حفظ مكانة إخوانه وأعني الذين هم في صفه وعلى منهجه.

والمؤلف العاقل يعلم أن الخطأ سمة البشر، وأن العصمة قد رُفعت عن الخلق أجمعين إلا من عصمه الله، فمن أنصف غيره أنصفه الله، ومن ستر زلة أخيه ستر الله عيبه، ومن تعقّب الزلات لم يُبارك له في علمه.

والعاقل يزن الرجال بالحق، لا يزن الحق بالرجال، ويعرف للناس قدرهم مع الاختلاف، فيجتمع له العلم والأدب، ويُثمر قوله قبولًا في القلوب.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ٨﴾ [المائدة: ٨].

الفصل الثالث عشر: الثبات بعد التأليف

من تمام التوفيق أن يثبت المؤلف بعد فراغه من كتابه، فلا يتغير قلبه ولا يزهو بعلمه، ولا تضعف همته بعد أن أكرمه الله بتمام العمل.

فكم من مؤلفٍ أحسن في مرحلة التأليف ثم تغيّر بعد الشهرة أو المديح، فذهبت بركة علمه، وزال أثره.

والثبات بعد التأليف علامة صدقٍ، إذ لا يكتب العبد لله إلا من رسخ

إخلاصه، فإذا أتمّ كتابه زاده العمل تواضعًا وشكرًا، لا فخرًا ولا انبهارًا.

والمؤلف الراسخ يرى أن الكتاب مرحلة من رحلته إلى الله، لا غايةً يركن إليها، فيبقى طالب علمٍ وإن بلَغ ما بلَغ، شاكرًا لنعم الله، مجددًا عزمه على العلم والدعوة، فإن الثبات بعد النعمة من أعظم أسباب دوامها.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت: ٣٠].

وقال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾ [هود: ١١٢].

عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يَقُولُ: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

«إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ»(١)

فمن تمام الأدب أن يخاف المؤلف من الفتور بعد التوفيق، وأن يسأل الله الثبات على العمل الصالح بعد أن أكرمه بالإنجاز.

الفصل الرابع عشر: الاستعانة بالأذكار والدعاء لحفظ النشاط

ينبغي للمؤلف أن يكون في حصنٍ من ذكر الله، ملازمًا للأذكار في

(١) رواه مسلم (٢٦٥٧).

صباحه ومسائه محافظًا على الدعاء الذي يقيه بإذن الله من شرّ الحسد والعين والوهن.

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ:

«الْعَيْنُ حَقٌّ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابِقَ الْقَدَرِ لَسَبَقَتْهُ الْعَيْنُ، وَإِذَا اسْتُغْسِلْتُمْ فَاغْسِلُوا»(١)

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال:

«الْعَيْنُ حَقٌّ، وَنَهَى عَنِ الْوَشْمِ»(٢)

فكم من مؤلفٍ بزغ نجمه وظهر أثره، فأعجب الناس بذكائه ورصانة قلمه، فأصيب بالعين أو فترت همّته بعد قوّة نشاطه.

والعلم نعمة تحتاج إلى حفظٍ كأي نعمة أخرى، وحافظها الأذكار الصادقة والدعاء الدائم بالتوفيق والعافية.

وليتذكر المؤلف أن القوة في الكتابة لا تدوم إلا بقوة الصلة بالله، وأن من وُفِّق إلى العلم ولم يُحصّنه بالذكر قد يُسلب بركته من حيث لا يشعر.

فليكن من دعائه الدائم: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، ومن الهم والحَزَن، ومن زوال نعمتك وتحول عافيتك، اللهم بارك لي في علمي وعملي ووقتي».

حتى يحفظ الله نشاطه، ويصون قلبه، ويجدد عزمه على مواصلة الخير.

---

(١) رواه مسلم في «صحيحه» رقم (٢١٨٨).

(٢) رواه البخاري في «صحيحه» رقم (٥٩٤٤) ومسلم رقم (٢١٨٧)

قال الله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

وقال الله تعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ٥﴾ [الفلق: ١-٥].

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال:

«احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ»(١)

الفصل الخامس عشر: دوام التجديد والمراجعة

من دلائل الإخلاص وحياة العلم أن يظل المؤلف متجددًا في فكره، راجعًا لما كتب، متأملًا في نتاجه، مصلحًا ما بدا له من خطأ أو نقص.

فليس التأليف عملًا يُطوى بانتهاء الكتاب، بل هو بناءٌ دائم يحتاج إلى مراجعة وصقلٍ ومتابعة.

والمؤلف الواعي كلما ازداد علمًا ازداد نقدًا لنفسه، فينظر إلى ما كتب بعين المتعلم لا بعين المعجب، ويُصحح ما لاح له من زللٍ أو سهوٍ أو ضعف في الاستدلال.

وما دام القلب حيًّا بالعلم، وجب أن يبقى الكتاب حيًّا بالمراجعة والتجديد، لأن المعارف تتطور، والأفهام تتجدد، ومن توقف عن

---

(١) رواه الترمذي برقم (٢٥١٦) وصححه الإمام الألباني في «مشكاة المصابيح» (٣/ ١٤٥٩).

المراجعة جمد علمه وانقطع نفعه. فليجعل المؤلف من مراجعة كتبه عبادةً أخرى، يبتغي بها وجه الله، ويُحسن بها ما قصّر فيه بالأمس. فإن مراجعة النفس من شكر النعمة، والتجديد من تمام الأمانة، ومن كان صادقًا في طلب الحق لم يأنف أن يُصلح ما كتب، أو يُبدل رأيه إذا بان له الصواب.

قال الله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه: ١١٤].

وقال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾ [سورة الزمر:١٨].

فمن كمال المؤلف أن يُراجع كتبه كل فترة، ويُعيد النظر فيما كتب، ويزيدها تهذيبًا وتحقيقًا، فإن العلم بحرٌ لا ينضب، ومن توقف عن المراجعة توقفت بركته.

الفصل السادس عشر: العمل بالعلم

المؤلف أولى الناس بالعمل بما كتب، لأنه قدوة القارئ ومحلّ نظر الخلق، ومن جمع بين العلم والعمل أورث الله علمه بركةً وقبولًا، ومن خالف قوله فعله نزع الله البركة من علمه وإن كثر تصنيفه.

فليحذر المؤلف أن تكون كتبه حجةً عليه يوم القيامة، إذ يكتب في الزهد وهو راغب، أو في الصدق وهو مُداهن، أو في الإخلاص وهو يبتغي الثناء.

والعمل بالعلم هو الثمرة الحقيقية للتأليف، لا كثرة المجلدات ولا

جمال العبارات.

فالمؤلف الصادق يجعل كتابه بدايةً لتزكية نفسه، ودليلاً يهتدي به قبل أن يهدي غيره، فيعيش بما علِم، ويستقيم على ما كتب، ويعلم أن الله سائله عمّا قال ودوّن.

ومن تأمل سيرة العلماء وجدهم إذا كتبوا في بابٍ كانوا فيه أسبق الناس عملًا، يربّون أنفسهم بأقلامهم قبل أن يربّوا بها الناس، فبارك الله في آثارهم وأحيا ذكرهم.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف: ٢-٣].

وقال الله تعالى: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٤٤﴾ [البقرة: ٤٤].

وعن أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يقول:

«يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ، فَيَدُورُ بِهَا فِي النَّارِ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى، قَالَ: فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ إِلَيْهِ فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانُ، أَمَا كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ ؟ قَالَ: فَيَقُولُ: بَلَى، قَدْ كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ»(١)

(١) رواه البخاري رقم (٣٢٦٧) ومسلم رقم (٢٩٨٩)

والثامن عشر: احذر من استعجال الثمرة

من آفات المؤلف أن يستعجل ثمرة عمله، فيطلب القبول قبل أوانه، أو يشتهي الثناء قبل أن يُمحّص إخلاصه.

والعلم شجرة لا تُثمر إلا بعد طول سقيٍ وصبرٍ وابتلاء، فمن استعجل نضجها قطفها خضراء لا طعم لها.

فليعلم المؤلف أن كتابه قد لا يُشتهر في حياته، وقد لا يلقى رواجًا بين الناس، ولكن إن صدقت نيته، جعل الله له أثرًا بعد موته، وأجرًا لا ينقطع بقدر إخلاصه.

فكم من مؤلفٍ خفيٍّ لم يُعرف في زمانه، ثم أظهر الله علمه بعد قرون، وكم من كتابٍ أعرض عنه الناس زمنًا، ثم صار بعد ذلك مرجعًا للأمة.

فلا تحزن إن تأخر القبول، ولا تستوحش من قلة القراء، فإن الله لا يضيع عمل المخلصين.

واثبت على نيتك، وارضَ بثمرتك في الآخرة، فإن من استعجل الحصاد أفسد الزرع قبل تمامه.

قال الله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧﴾ [النحل: ١٢٧].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال:

«يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، يَقُولُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي»(١)

---

(١) رواه البخاري رقم (٦٣٤٠) ومسلم رقم (٢٧٣٥).

الفصل السابع عشر: لا يتثبّط بكلام المثبّطين ولا يلتفت للمحقّرين

المؤلف الصادق لا يسلم من أذى الناس، فقد يُقلّل بعضهم من شأن جهده، أو يثبطه عن مواصلة طريقه، أو يحقّر عمله إما حسدًا أو جهلًا أو تعالِيًا.

فلتحذر أن يُصغي إلى أصوات التثبيط، فإنها سهامٌ تصيب الهمة وتفسد النية.

وليتذكر المؤلف أن ميزان العمل عند الله لا عند الناس، وأن قيمة الكتاب بما فيه من إخلاصٍ ونفعٍ، لا بما يُقال حوله من مديحٍ أو ذمّ.

فلا يترك المؤلف قلمه لأن أحدهم استهان بكتابه، ولا يتراجع لأنهم قالوا: قد سبقك من هو أعلم»، فلكلٍّ طريقه ونصيبه من التوفيق، والله يُجري الخير على يد من يشاء.

فليعمل المؤلف بصمتٍ وثبات، ولْيجعل مدح الناس وذمّهم سواء، وليعلم أن من كتب لله لا يضره من خذله، ومن صدق في نيته رفع الله ذكره وإن تجاهله الخلق أجمعون.

قال الله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ٦٠﴾ [الروم: ٦٠].

وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ١٠﴾ [سورة الأنعام: ١٠].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال:

«الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»(١)

جاء في كتاب «المقفى الكبير» (٥/ ٢٠٧) -في طريقة الشافعيّ في التأليف-:

قال بحر بن نصر الخولانيّ: قدم الشافعيّ من الحجاز فبقي بمصر أربع سنين، ووضع هذه الكتب في أربع سنين ثمّ مات.

وكان أقدم معه من الحجاز كتب ابن عيينة، وخرج إلى يحيى بن حسّان فكتب عنه، وأخذ كتابا من أشهب بن عبد العزيز فيه آثار، وكلام من كلام أشهب، فكان يضع الكتب بين يديه ويصنّف الكتب.

فإذا ارتفع له كتاب جاءه صديق له يقال له ابن هرم، فيكتب، ويقرأ عليه البويطيّ، وجميع من يحضر يسمع، في كتاب ابن هرم، ثمّ ينسخونه بعد.

وكان الربيع على حوائج الشافعيّ، وربّما ذهب في حاجة، فيعلّم له، فإذا رجع قرأ الربيع عليه ما فاته.

وقال المزنيّ: سمعت البويطيّ يقول: قلت للشافعيّ: إنّك تتعنّى في

---

(١) رواه مسلم رقم (٢٦٦٤)..

تأليف الكتب وتصنيفها، والناس لا يلتفتون إلى كتبك ولا إلى تصنيفك.

فقال: يا بنيّ، إنّ هذا هو الحقّ، والحقّ لا يضيع.

وقال البويطيّ: سمعت الشافعيّ يقول: ألّفت هذه الكتب ولم آل فيها، ولا بدّ أن يوجد فيها الخطأ لأنّ الله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [سورة النساء:٨٢]. فما وجدتم في كتبي هذه ممّا يخالف الكتاب أو السنّة، فقد رجعت عنه.

وقال الربيع: سمعت الشافعيّ يقول: وددت أنّ النّاس تعلّموا هذه الكتب، ولا ينسب إليّ منها شيء.

قال: ودخلت عليه، وهو مريض، فذكر ما وضع من كتبه وقال: لوددت أنّ الخلق تعلّمه ولم ينسب إليّ منه شيء أبدا اهـ.

الفصل الثامن عشر: التفرّغ الذهني والتهيئة النفسية قبل التأليف

من أراد أن يكتب كتابًا نافعًا فليبدأ من قلبه قبل قلمه، ومن ذهنه قبل دفتره.

فالتأليف عملٌ كبير لا يليق أن يُدخل عليه المشتتات ولا يُستفتح بغير نيةٍ صافيةٍ وتهيئةٍ صادقة.

والمؤلف لا يُرزق صفاء الفكر إلا إذا أفرغ قلبه من هموم الدنيا، وأقبل على مشروعه بعزيمةٍ وسكونٍ وصدقٍ مع الله.

فليتهيأ المؤلف لرحلةٍ طويلةٍ تحتاج إلى طاقةٍ روحيةٍ، وصبرٍ ذهني،

وتجرّدٍ من شواغل النفس، وليعلم أن الفكرة لا تثمر إلا في أرضٍ خصبةٍ من الطمأنينة والسكينة.

ومن الحكمة أن يختار أوقات صفائه الذهني، وأحسن مواضع تفكره، وأبعد الساعات عن الانشغال والضجيج، فيبدأ عمله وهو على خلو قلبٍ، ووضوحٍ في المقصد، فإن الكلمة التي تُكتب في صفاءٍ تبقى، والتي تُكتب في اضطرابٍ تزول.

قال السخاوي رحمه الله في «فتح المغيث بشرح ألفية الحديث» (٣/ ٣١٨):

قَالَ الْخَطِيبُ: وَيَنْبَغِي أَنْ يُفَرِّغَ الْمُصَنِّفُ لِلتَّصْنِيفِ قَلْبَهُ، وَيَجْمَعَ لَهُ هَمَّهُ، وَيَصْرِفَ إِلَيْهِ شُغْلَهُ، وَيَقْطَعَ بِهِ وَقْتَهُ، وَقَدْ كَانَ بَعْضُ شُيُوخِنَا يَقُولُ: مَنْ أَرَادَ الْفَائِدَةَ فَلْيَكْسِرْ قَلَمَ النَّسْخِ، وَلْيَأْخُذْ قَلَمَ التَّخْرِيجِ اهـ.

الفصل التاسع عشر: النية المتجددة أثناء الكتابة

من كمال الإخلاص أن يراقب المؤلف نيته في أثناء الكتابة كما راقبها في بدايتها، فإن القلوب تتقلب، والشيطان لا يملّ من إفساد النيات.

فربّ مؤلفٍ بدأ لله، ثم تسللت إليه الرغبة في مدح الناس أو طمع الثناء، فذهب بركة علمه وهو لا يشعر.

فينبغي للمؤلف أن يُجدد نيته كلما أمسك القلم، ويسأل نفسه: لمن أكتب؟

ألعلمٍ يُرفع به الجهل؟ أم لرياءٍ يُمدح به بين الناس؟ فإن وجد في نفسه

ميلًا إلى الدنيا فليستغفر ربه وليعُد إلى قصده الأول.

والنية الصادقة كالماء للزرع؛ إن انقطعت ذبلت ثمرة التأليف، وإن تجددت دام نفع الكتاب وبقي أثره بعد صاحبه.

فكم من مؤلفٍ لم يُعرف اسمه، لكن الله رفع ذكره ببركة إخلاصه، وكم من آخر اشتهر زمنًا ثم اندثر أثره لما قصد بعمله غير وجه الله.

فليكن المؤلف دائم الصلة بربه أثناء التأليف؛ يستفتح بالاستغفار، ويستعين بالدعاء، ويختم كل فصلٍ بالحمد والشكر.

وإذا أحسّ بالعُجب أو الغفلة، فليتذكر أنه ما كتب إلا بتوفيق الله، وأن القلم لا ينطق إلا إذا أذن الله له.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾ [الإسراء: ٨٤].

وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يقول:

«إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِيَّة، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»(١)

الفصل العشرون: لحظات المؤلف بين المداد والدعاء

ليس القلم وحده من يصنع الكتاب، بل القلب الذي يكتب بالدعاء قبل المداد.

فالمؤلف الحق يعيش بين سطورٍ يسطرها بيده، ودموعٍ يرفعها بدعائه،

---

(١) رواه البخاري (١) ومسلم (١٩٠٧).

يستمد العون من الله في كل فكرةٍ تلهمه، وفي كل سطرٍ يكتبه، وفي كل بابٍ يفتحه.

فكم من مؤلفٍ لم يُفتح له في بحثه إلا بعد ركعةٍ خاشعةٍ أو تسبيحةٍ مخلصة، وكم من غموضٍ في العلم انقشع بعد دعوةٍ في جوف الليل.

إن لحظات المؤلف بين المداد والدعاء هي لحظات صدقٍ واتصالٍ بالله، يُكتب فيها العلم بحبرٍ من التوفيق لا بالحروف وحدها.

ولْيكن المؤلف كلما أُعجب بصفحةٍ كتبها، أو سُرّ بترتيبٍ ألهمه الله إياه، قال في نفسه: اللهم لا علم إلا ما علمتني، فإن القلم إن كتب بغير استعانةٍ زلّ، وإن كتب بتوفيق الله ثبت ونفع.

وما أجمل أن يُضمِّن المؤلف دعاءه في أثناء الكتابة، يستغفر في مقدمته، ويُثني على الله في خاتمته، ويدعو لنفسه ولمن يقرأ، فيكون كتابه نافعًا في الأرض ومرفوعًا في السماء.

فكم من كتابٍ لم يُعرف صاحبه لكنه بقي يُتداول لبركة الدعاء فيه، وكم من مصنفٍ كبيرٍ ذهبت آثاره لأن صاحبه كتب بعقله دون قلبه.

فاحفظ بين المداد والدعاء صلتك بالله، فإن العلم إن لم يُسقَ بدمع الخشوع، جفّ قبل أن يُثمر.

قال الله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه: ١١٤].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٩].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كان يقول:

«اللَّهُمَّ انْفَعْنِي بِمَا عَلَّمْتَنِي وَعَلِّمْنِي مَا يَنْفَعُنِي وَزِدْنِي عِلْمًا الْحَمْدُ لِلهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَأَعُوذُ بِاللهِ مِنْ حَالِ أَهْلِ النَّارِ»(١)

الفصل الحادي والعشرون: حقوق الناشرين والمراجعين

من الوفاء العلمي، وحسن الخلق مع الخلق، أن يحفظ المؤلف حقوق من أعانوه في إخراج كتابه؛ من ناشرين، ومراجعين، ومصممين، ومن كان سببًا في ظهوره للناس على أحسن وجه.

فليس التأليف عملًا فرديًا خالصًا في كل مراحله، بل كثيرًا ما يشترك في تمامه من لم يُذكر اسمه على الغلاف.

فالناشر شريك في نشر الخير، وساعٍ في تبليغ العلم، وقد بذل من وقته وماله وجهده ما يستحق به الشكر الجميل، والدعاء الصادق.

فلا يظلمه المؤلف، ولا يتكبر عليه، ولا يتعالى عن رد الجميل، بل يحرص على إنصافه في العقود، وتقديره في الثناء.

وكذلك المراجع العلمي أو اللغوي، فإنه أجرى قلمه لتصويب الخطأ وتجويد الصياغة، وقد أسدى للمؤلف معروفًا لا يُقدّر بثمن، لأن تصحيح العلم أمانة، وتجويد العبارة خدمة لدين الله، فجزاؤه الدعاء والثناء والاعتراف بفضله.

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٩٩). وحسنه بشواهده العلامة الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها» (٧/ ٤٢٩).

ومن المروءة أن يذكر المؤلف في بعض الأحيان أسماء من شاركوه في المراجعة أو التدقيق في مقدمة كتابه أو خاتمته، أو يعبّر عن شكره لهم بعبارة لائقة، دون أن يُغفل حقوقهم المادية.

فكما أن عزو الفكرة إلى صاحبها أمانة علمية، فكذلك نسبة الجهد إلى صاحبه أمانة خلقية.

ومن الظلم أن يستأثر المؤلف بكل الثناء، ويغفل من أعانه على إخراج الكتاب، فإن ذلك نوعٌ من الكِبر وكفران المعروف.

قال الله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [سورة هود:٨٥].

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ الله»

فليكن المؤلف وفيًّا في شكره، عادلًا في إنصافه، جميل القول في حق إخوانه، فإن الكتاب الذي خرج على أيدي المخلصين جميعًا، أجدر أن يباركه الله وينفع به الأمة.

الفصل الثاني والعشرون: دوّن كل فكرة تخطر لك، فربّ خاطر يصبح مشروع كتاب.

من فطنة المؤلف وحسن تدبيره أن يكون حاضر الذهن لتقييد خواطره وأفكاره، فإن الواردات الفكرية مواهبٌ ربانية، تمرّ في لحظة ثم تمضي، ومن لم يُسارع إلى حفظها فاتته بركتها.

فكم من فكرةٍ يسيرةٍ خطرت على قلب مؤلفٍ، فدوّنها في سطرٍ، ثم نما ذلك السطر حتى صار فصلًا، ثم بابًا، ثم كتابًا كاملًا نفع الله به الناس.

والعقل البصير لا يحتقر الخاطر اليسير، بل يقيّده لوقته، ثم يعود إليه حين تتكامل له المعاني.

وليكن للمؤلف دفترٌ صغير أو تطبيقٌ مخصص يجمع فيه أفكاره، يدوّن فيه كل ما يمرّ بخاطره من معاني أو استنباطات أو شواهد أو عناوين محتملة، فإنها ثروة فكرية لا تُقدّر بثمن.

والتدوين المنتظم للأفكار يُنظّم مسار التأليف، ويُثري حصيلة الباحث، ويُجنّبه التكرار والارتجال، ويجعله دائم الصلة بالفكر والعلم.

ومن أعرض عن التقييد ضاعت منه كنوز، لأن الخاطر إن لم يُحبس بالكتابة تلاشى كما يتلاشى العطر في الهواء.

عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «قَيِّدُوا العِلْمَ بِالكِتَابَة»(١)

وكان من عادة العلماء وأهل الفطنة أن لا يسافر أحدهم إلا ومعه دفتره، يدوّن فيه الفوائد التي تلوح له في المجالس، أو الخواطر التي يفتح الله بها عليه في السفر والمطالعة.

فالقلب لا يختار لحظة الإلهام، والعلم لا يستأذن في النزول، وإنما يُقتنص كما يُقتنص الطير في الهواء.

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٦١) وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٤٣٤)

فليكن للمؤلف دفترٌ ثابت، صغير الحجم قريب المنال، يرافقه في رحلاته وزياراته ودروسه، يكتب فيه ما يسمع من الفوائد، أو ما يتبادر إلى ذهنه من المعاني.

فإن هذه الملاحظات هي رصيد المستقبل، وبذور المشاريع القادمة، ولبنات الكتب المقبلة.

ومن تعوّد تقييد الفوائد في حينها وجد بركةً في فكره، ونظامًا في علمه، وسعةً في مؤلفاته، لأن الأفكار إذا تراكمت في الأوراق سهل جمعها وتصنيفها لاحقًا.

فليكن في سفرك دفترا وقلما فهما رفيقان لا يُستغنى عنهما، وهما أوفى من الهاتف الذي قد يُغلق أو يضيع، أما الورق فيحفظ ما كُتب عليه ولو تغيّر الزمان.

الفصل الثالث والعشرون: ابدأ صغيرًا، ولا تستحقر الكتابة القصيرة، فالمؤلفات العظيمة كانت بذورًا يسيرة

من مهمام التأليف أن يبدأ المؤلف بما يقدر عليه، وألا يُرهق نفسه بطلب العظمة من أول خطوة، فكل إنجازٍ كبير إنما نشأ من بدايةٍ صغيرةٍ مباركة.

فليكتب الباحث المقال والورقة والفائدة، فإنها اللبنات التي تُبنى منها القصور العلمية.

كم من كاتبٍ بدأ بمذكرةٍ صغيرةٍ في درسٍ، ثم جمعها فصارت رسالة،

ثم نمّاها فصارت كتابًا نافعًا انتشر بين الناس.

والعاقل لا يزهد في اليسير، لأن البركة قد تكون في السطر الواحد إذا كُتب بإخلاصٍ وصدق.

ومن استصغر البدايات حُرم النهايات، لأن النفس لا تُعطى العلم دفعةً واحدة، بل تُدرَّب بالتدرج والمثابرة.

فالكتابة القصيرة تمهّد الطريق للمطولات، وتربي لدى المؤلف دقة الفكرة، وصفاء العبارة، وحب البناء المتدرج الذي هو من سنة الكون.

ولا يُحتقر القليل من الخير، كما لا يُحتقر القليل من العلم، فالله تعالى يقول: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧﴾ [الزلزلة: ٧].

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ:

«إِنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ»(١)

فالاستمرار على القليل المبارك خيرٌ من الانقطاع بعد محاولةٍ عظيمة، ومن صدق في القليل بلّغه الله الكثير، ومن زرع بذرةً نافعًا كتب الله له من ثمارها ما لا يُحصى.

الفصل الرابع والعشرون: الإلمامُ في البحث

الإلمام في البحث هو ميزان العالم الراسخ، ودليل المؤلف المتزن؛ إذ ليس المقصود من التأليف الإغراق في التفصيل حتى يملّ القارئ، ولا الإيجاز المخلّ الذي يُذهب المعنى، وإنما هو الاعتدال بين البيان

(١) رواه البخاري (٦٤٦٥) ومسلم (٧٨٣).

والاختصار، بحيث يُحيط المؤلف بموضوعه إحاطةً شاملةً من غير إسهابٍ مملٍّ ولا تقصيرٍ مخلٍّ.

فمن تمام الفقه أن يعرف الكاتب موضع التوسعة وموضع الكف، ويدرك مقدار ما يحتاجه القارئ ليُفهم المقصود، ويترك ما لا يزيد المعنى وضوحًا.

فالمؤلف النافع لا يُغرق في الجزئيات التي لا تخدم أصل الموضوع، ولا يُطنب في ذكر الأقوال المتشابهة، بل يجمع أطراف المسألة بترتيبٍ حكيمٍ وعبارةٍ رصينةٍ.

والإلمام الحقيقي أن يُلمّ الباحث بجوانب موضوعه كلها: تعريفًا وتأصيلًا وأدلةً وآثارًا وتطبيقًا، بحيث لا يُغادر ما يُحتاج إليه في الفهم، ولا يُقحم ما لا طائل تحته.

فمن عرف حدود بحثه أجاد، ومن جاوزها أضاع الجهد وشوّش القارئ.

وقد كان سلف الأمة إذا كتبوا، كتبوا بعلمٍ جامعٍ وحكمةٍ في العرض، فكانت كتبهم قليلة الحجم عظيمة النفع، لأنهم جمعوا فيها روح العلم لا حروفه.

قال ابن العربي رَحِمَهُ اللَّهُ في «أحكام القرآن ط العلمية» (٢/ ٢١٥):

يَنْبَغِي أَنْ يَعْتَنِيَ بِبَسْطِ الْأَدِلَّةِ، وَإِيضَاحِ سُبُلِ النَّظَرِ، وَتَحْصِيلِ مُقَدَّمَاتِ الِاجْتِهَادِ، وَإِعْدَادِ الْآلَةِ الْمُعِينَةِ عَلَى الِاسْتِمْدَادِ؛ فَإِذَا عَرَضَتْ النَّازِلَةُ أَتَيْت

مِنْ بَابِهَا، وَنُشِدَتْ فِي مَظَانِّهَا، وَاَللهُ يَفْتَحُ فِي صَوَابِهَا اهـ.

الفصل الخامس والعشرون: الصبرُ وعدمُ الملل

التأليف ميدانُ صــبرٍ طويل، لا يُدرَك ثمره إلا لمن ثبَت على الطريق، فالعلم لا يُعطي خيرَه إلا لمن أعطاه كُلَّه.

فليعلم المؤلف أن مشــوار الكتابة ليس لحظة إلهامٍ عابرة، بل رحلةُ معاناةٍ وجِدٍّ ومجاهدةٍ للنفس، فيها ســاعاتُ فتورٍ وطولُ مراجعةٍ وكثرةُ تصحيحٍ وتردّد.

فمن لم يُسلِّح نفسه بالصبر ملَّ سريعًا وترك مشروعه قبل اكتماله.

ولا عجب أن ترى بعض المؤلفين يبدؤون كتبًا كثيرة ولا يُتمّونها، لأن الصبر لم يبلغ فيهم مبلغ الإتقان.

والصــبر في التأليف ليس على طول الجهد فقط، بل على نقد الناس، وتأخّر الثمرة، وكثرة المراجعة، وضــيق الوقت، وضــعف الإلهام، وكل ذلك امتحانٌ للنية وميزانٌ للصدق.

ومن أراد القبول والبركة فليجعل الصــبر زاده في كل مرحلةٍ من مراحل البحث؛ يصــبر على طلب المعلومة، وعلى جمع المراجع، وعلى إعادة التحرير، حتى يخرج كتابه في أبهى صورة.

فالصبر مع القلم كالماء مع الزرع؛ إن فُقد جفّت الثمرة.

ومن صــبر في التأليف نال ثلاث بركات: بركة الفهم، وبركة البيان، وبركة القبول عند الناس.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ ﴾ [النحل: ١٢٧].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ١٠﴾ [الزمر: ١٠].

وعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ:

«يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ»(١)

الفصل السادس والعشرون: أن يدرك المؤلف الفرق بين المؤلف النافع والمكثر بلا فائدة

ليس الفضل في كثرة التأليف، وإنما في صدقه وجودته ونفعه.

فالمؤلف النافع يكتب بعلمٍ متينٍ، وبنيةٍ صادقة، فيزن كل حرفٍ قبل أن يسطّره، ويجعل غايته هداية القارئ وإيصال الحق إليه، لا مجرد ملء الصفحات أو طلب الشهرة.

أما المكثر بلا فائدة، فيكتب استعجالًا، ويُخرج كتبه قبل نُضجها، فيكرر المعاني بلا تحقيق، ويجمع من كل فنٍّ طرفًا بغير ضبطٍ ولا بيان، فيكون كما قالوا: يكثر الغبار ولا يحمل الأثر.

المؤلف النافع يُحسن الاختيار، فيكتب في المسائل التي يحتاجها الناس، ويجتهد في تحريرها، ويجعل تأليفه عبادةً يتقرب بها إلى الله، فيبارك الله في قلمه، وينتفع الناس بعلمه ولو كان قليلاً.

---

(١) رواه الترمذي (٢٢٦٠). وصححه الإمام الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٢/ ٦٤٥).

أما المكثر بلا فائدة، فكتبه كثيرة لكن لا تُورث يقينًا ولا علمًا، وربما تشتّت القارئ بدل أن تهديه، إذ حُرم بركة الإخلاص والتحقيق.

فالعبرة في العلم ليست بكثرة الأوراق، وإنما بما تحمله من نورٍ وهدى، كما أن الجواهر القليلة أنفع من التراب الكثير.

قال الله تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ [الحديد: ٢٠].

وقال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

فالمؤلف النافع هو من يكتب عن علمٍ راسخٍ ومنهجٍ واضح، والمكثر بلا تحقيقٍ إنما يستهلك الورق ولا يورث الفهم.

وكم من رسالة صغيرةٍ أنفع من مجلدٍ ضخم، لأن الأولى خرجت من قلبٍ صادقٍ، والثاني من قلمٍ معجبٍ بنفسه.

الفصل السابع والعشرون: أهمية توحيد المنهجية في العزو

من تمام التحقيق وحسن الصناعة العلمية أن يوحِّد المؤلف منهجيته في العزو والتوثيق، فلا يُفرِّق في طريقة الإحالة بين موضعٍ وآخر، ولا يخلط بين أنماطٍ متعددةٍ في أسلوب الإسناد.

فالاتساق في العزو علامةُ ضبطٍ وتوازنٍ، تدل على عناية المؤلف، وتورث القارئ الثقة ببحثه.

فمن الخطأ أن يُذكر المرجع أحيانًا باسم الكتاب فقط، وأحيانًا بالجزء والصفحة، أو أن يكتب «أخرجه البخاري» في موضع، ويكتب «رواه

البخاري في صحيحه (رقم...)» في موضعٍ آخر؛ فهذه التفاوتات تُضعف المظهر العلمي، وتُربك القارئ، وتوهم العجلة أو التشتت في المنهج.

ومن وُفِّق لتوحيد طريقته في العزو أراح نفسه وقرّاءه، وحافظ على جمالية الكتاب، ووثّق دقته.

فكما يُحسن المؤلف اختيار عباراته، ينبغي أن يُحسن تنظيم مراجعها، فإن الكتاب المنضبط في عزوه أصدق دلالةً على صاحبه من طول مقدمته أو فخامة طباعته.

ومن فوضى التوثيق فساد التأليف، لأن القارئ لا يدري موضع المصدر، ولا يعتمد على الحكم.

فليكن للباحث أسلوبٌ راسخٌ منضبط في النقل، فهذا من دلائل رسوخ المنهج وقوة التحقيق.

الفصل الثامن والعشرون: لا تبتغِ بمؤلفاتك الدنيا

إن الباحث المؤلف إذا احتسب عمله لله، وجعل جهده في التأليف والبحث خالصًا لوجهه تعالى، رفعه الله في الدنيا والآخرة، وجعل له منزلة شريفة عالية بإذنه سبحانه.

قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى: ٢٠].

فليَقِفْ كل مؤلف مع نفسه وقفة صدق، وليحاسبها: ماذا يريد من هذا

الجهد؟ وماذا سيجني من هذه الدنيا الفانية، والآخرة هي الدار الباقية؟

قال تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٣٦﴾ [الشورى: ٣٦].

إن المحروم حقًّا من المؤلفين هو من جعل كتابه سلعةً للتكسب، وقلمه أداةً لجمع الأرباح، لا يكتب إلا حيث يظن الرواج، ولا يؤلف إلا فيما يراه مبيعًا في الأسواق.

تراه يهرع إلى الموضوعات الرائجة، ويستعجل إخراج مؤلفه لأجل المال لا لأجل العلم، فإذا به ينسخ ويجمع ويبرمج وينشر في أيام قلائل، دون تروٍّ أو تثبتٍ أو إخلاص.

وهذا الصنف كثير في زماننا، مع اتساع التقنية وسهولة النشر، فكم من كتاب أُخرج في صورةٍ حسنةٍ وليس وراءه علمٌ راسخ، وكم من باحث نسب إلى نفسه ما لم يتعب فيه، وسرق من جهود غيره ثم تصدّر بها! وذاك والله من أعظم البلاء، وإلى الله المشتكى.

وصنف آخر يؤلف طلبًا للتزلف إلى أصحاب الجاه والمنزلة، أو رجاء عطيةٍ أو منصب، فصار قلمه كالذي ينظم الشعر في مديح من يمدحهم طلبًا للمال والصلة.

وهذا أيضًا محروم الأجر، إن لم يكن قصده لله وحده.

وقد قال شيخنا عبد العزيز الراجحي حفظه الله في كتابه «القول البين الأظهر في الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» (ص٩٨):

«أن يقصد بعمل الآخرة الدنيا وحطامها، أو الرياء والمفاخرة والسمعة، كتعلّم العلم الشرعي بقصد الحصول على المال أو المنصب والجاه، أو بقصد المفاخرة والسمعة، أو تأليف الكتب لأجل ذلك». انتهى.

ولم يَسْلَم التاريخ من أمثلةٍ على من جعلوا التأليف وسيلةً دنيوية، فقد ذكر شوقي ضيف في «تاريخ الأدب العربي» (٤/ ١٢١):

أن الجاحظ أهدى كتابه «البيان والتبيين» إلى أحمد بن أبي دؤاد فأعطاه خمسة آلاف دينار، وأهدى كتابه «الزرع والنخيل» إلى إبراهيم بن العباس الصولي فأعطاه مثلها، وصنف للفتح بن خاقان رسالةً في فضائل الترك، فأجرى عليه الوزير راتبًا شهريًا من خزانة الدولة.

وهكذا كان كثير من الأدباء ينالون الجوائز والعطايا على مؤلفاتهم، ويُثابون بالمال على المحاضرات والكتب، حتى صار ذلك دافعًا للشباب على طلب العلم حبًّا في الوجاهة لا ابتغاء وجه الله.

ومع ذلك فقد بقي في كلام الجاحظ ما يشير إلى فضل العلم وسموّه، إذ قال:

يطيب العيش إذ تلقى لبيبًا ... غذاه العلم والرأي المصيب

فيكشف عنك حيرة كل جهل ... وفضل العلم يعرفه الأريب

سقام الحرص ليس له دواء ... وداء الجهل ليس له طبيب

التاسع والعشرون: لا تنتظر مدح مادح لما تؤلفه

أيها المؤلف المبارك، اعلم أن من أعظم ما يُبتلى به طالب العلم وصاحب القلم أن تتطلع نفسه إلى ثناء الناس ومدحهم، وأن يفرح إذا ذُكر بين الكُتّاب، ويغتمّ إذا نُسي أو لم يُشكر.

وهذا الداء خفيّ في القلوب، لا ينجو منه إلا من طهّر الله قلبه، وغرس فيه الإخلاص.

قال الله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٩]

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: ١٣].

فالله هو المزكّي لا الناس، وهو الذي يرفع من أخلص، ويضع من التمس بعمله وجه الخلق.

فإذا رأيت من يمدحك على علمك أو قلمك، فاعلم أن المادح إنما نطق بما قذفه الله من حب لك فالحمد لله الذي أظهر جميل ستره عليك.

واستشعر -أيها الباحث- أن الله هو وحده أحق بالحمد والثناء، فإن حمده زين، وذمه شين، كما جاء في الحديث عن البراء بن عازب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ٤﴾ [الحجرات: ٤]

قال: «قَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ حَمْدِي زَيْنٌ وَإِنَّ ذَمِّي شَيْنٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «ذَاكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ»(١)

---

(١) رواه الترمذي (٣٢٦٧) وحسنه الإمام الوادعي في «الصحيح المسند مما ليس في

فلا تتطلع إلى مدح الخلق، فإنهم لا يملكون لك نفعًا ولا ضرًّا، وإنما كن على يقين أن الثناء الذي يأتيك منهم إنما هو عاجل بشرى المؤمن، لا أنه غاية القصد.

كما في حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

«قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنَ الْخَيْرِ وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: «تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ»(١)

فاحمد الله إذا وُفقت لعمل نافع، وشكر الناس لك هو دليل على قبول الله لعملك، لكن احذر أن يتسلل الرياء إلى قلبك بعده، فتغدو تكتب لترى أثرك، لا لتبتغي مرضاة ربك.

واعلم أن القلوب متقلبة، والناس أسرع ما يكونون مدحًا يومًا، وذمًّا في اليوم الآخر، فلا تركن إلى ثنائهم، ولا تتكئ على مديحهم، فإن من أرضى الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس.

جاء عَنْ مَعْقِلِ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ الْجَزَرِيِّ، قَالَ: «كَانَتِ الْعُلَمَاءُ إِذَا الْتَقَوْا تَوَاصَوْا بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ، وَإِذَا غَابُوا كَتَبَ بِهَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ أَنَّهُ: مَنْ أَصْلَحَ سَرِيرَتَهُ أَصْلَحَ اللهُ عَلَانِيَتَهُ، وَمَنْ أَصْلَحَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ كَفَاهُ اللهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، وَمَنِ اهْتَمَّ بِأَمْرِ آخِرَتِهِ كَفَاهُ اللهُ أَمْرَ دُنْيَاهُ»(٢)

واعلم أن طلب المدح قد يُفسد نية المخلص بعد إخلاص، ويُحوِّل

الصحيحين» (١/ ١١٩).

(١) رواه مسلم (٢٦٤٥)

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «الإخلاص والنية» (٢٢).

التأليف من عبادة إلى عادة، ومن رسالة إلى رياء.

فربّ مؤلفٍ كان في أول أمره صادقًا مخلصًا، ثم مالت به النفس إلى حب الثناء، فصار يفرح بذكر اسمه أكثر من فرحه بنفع علمه، فيمحو الله بركة قلمه وإن كثرت صفحاته.

الخلاصة: ربّ عمل صغير تعظّمه النية، وربّ عمل كبير تصغّره النية، فاحذر أن تكتب سطرًا تريد به غير وجه الله، فإن الحبر لا يجف حتى يُكتب لك به إثم أو أجر.

فاجعل نيتك أن تكون كاتبًا لله لا للخلق، ومؤلفًا للدين لا للدنيا، واجعل أقصى غايتك أن يقال يوم القيامة: هذا عبدٌ كتب لله لا لغيره، وأخلص في قلمه كما أخلص في صلاته.

واعلم أن الله لا يضيع أجر من أحسن نيةً وعملاً، وأن القبول لا يُنال بكثرة المؤلفات، بل بصدق النية وصفاء القلب.

فكم من كتابٍ صغيرٍ أورث الله به هدايةً عظيمة، وكم من مجلداتٍ ضخمةٍ طواها النسيان لأنها كُتبت لغير الله.

قال بعض السلف: «ما كان لله دام واتصل، وما كان لغير الله انقطع وانفصل».

فلا تنتظر مدحًا من الناس، بل انتظر القبول من الله، فإن من قبله الله رفعه ولو لم يُعرف اسمه، ومن رده الله وضعه ولو ذاعت شهرته.

الفصل الثلاثون: لزوم منهج السلف والنقل من كتب العلماء المتقدمين والمتأخرين.

إن من أعظم ما يُبتلى به الباحث والمؤلف في طريق طلب العلم والتأليف أن يتجاوز أصول السلف الصالح ويستغني بعقله أو بأساليب المعاصرين عن مناهجهم وطرائقهم، فيقع في الزلل من حيث لا يشعر.

فكتب السلف هي العيون الصافية التي نبع منها العلم الصحيح، وهي الأصل الذي تفرّعت منه كتب المتأخرين، ومن حُرم النظر فيها حُرم النور والبركة.

فمن سمات المؤلفين الراسخين في العلم أنهم لا يكتبون آراءهم من فراغ، ولا يجعلون أقلامهم فوق أقدار العلماء، بل يبنون كلامهم على ما ورثوه من تراث السلف وأقوال الأئمة.

قال بدر الدين الزركشي رَحِمَهُ اللَّهُ في «البرهان في علوم القرآن» (١/ ١٦):

وَاعْلَمْ أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَفْتَخِرُ وَيَقُولُ كَتَبْتُ هَذَا وَمَا طَالَعْتُ شَيْئًا مِنَ الْكُتُبِ وَيَظُنُّ أَنَّهُ فَخْرٌ وَلَا يَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ غَايَةُ النَّقْصِ فَإِنَّهُ لَا يَعْلَمُ مَزِيَّةَ مَا قَالَهُ عَلَى مَا قِيلَ وَلَا مَزِيَّةَ مَا قِيلَ عَلَى مَا قَالَهُ فَبِمَاذَا يَفْتَخِرُ. اهـ.

فالإكثار من النقل عن العلماء ليس ضعفًا في شخصية الباحث ولا عجزًا في بيانه، بل هو أمارة الرسوخ والإنصاف والتأصيل، ودليل صدقٍ في طلب الحق، وحرصٍ على أن يكون العلم مؤسسًا على أصولٍ ثابتةٍ لا على خواطرٍ طارئة.

ولهذا كان من أعظم ما يُثري الكتاب ويقوّيه أن يكثر مؤلفه من النقول المحكمة عن أهل العلم، بشرط أن يختارها بعناية، وأن يحسن ترتيبها وبيان وجه الاستدلال منها، فيكون جامعًا بين حسن الاختيار، ودقة العرض، ووضوح الفهم.

فمن أكثر من النقل عن العلماء سلم من الزلل، وأصاب بركة العلم، وارتفع شأن كتابه بين الناس، لأن الناس لا يثقون بالرأي المجرد، وإنما يطمئنون إلى ما استند إلى الأئمة وأقوالهم.

وهذا المعنى من آكد ما يحتاج إليه الباحث في زمنٍ كثرت فيه الجرأة على القول بغير علم، وقلّ فيه من يتأدب بآداب العلماء في البحث والكتابة.

ومن هنا جاء هذا الفصل ليبيّن فضل الإكثار من النقل عن أهل العلم، وآداب ذلك، وثمراته، وليغرس في قلب الباحث معنى التبعية المباركة لأئمة الهدى، فإن من سار في طريقهم، نقلًا وفهمًا، سار على الصراط المستقيم.

جاء في كتاب «شرح زاد المستقنع - الشنقيطي - التفريغ» (٣١٧/ ٢٢ بترقيم الشاملة آليا)

قال: وقال لي الوالد رحمة الله عليه-الإمام المفسر الشنقيطي رحمه الله- مرة أنصحك.

أو: أناشدك الله ألا تجد علمًا عند السلف وعند الأئمة المتقدمين

وعند المتأخرين شيء منه إلا رجعت إلى علم المتقدمين اهـ.

ثمرات الإكثار من النقل عن العلماء

إن الإكثار من النقل عن أهل العلم له ثمرات جليلة، تظهر في علم الباحث وأدبه ومنهجه، ومن أبرزها:

الرسوخ في العلم:

فالنقل عن العلماء يربط الباحث بجذور العلم وأصوله، ويمنحه فقهًا واسعًا مبنيًا على التجربة والفهم الصحيح، ومن سار خلف الأئمة أمن الزلل.

السلامة من الخطأ والهوى:

لأن الباحث حين يرجع إلى أقوال العلماء يستنير بعقولٍ راجحةٍ سَبقته، فلا يبتدع قولًا، ولا يركب رأيًا شاذًا، بل يكون على بيّنة من الدليل والمعنى.

تحصيل بركة العلم:

فالمنقول عن العلماء المخلصين فيه بركة ظاهرة، إذ أُخذ من أفواه الصادقين، وتوارثته الأمة جيلاً بعد جيل، وبركة العلم في نسبته إلى من قاله بحقٍّ، لا في تجريده من أهله.

إقناع القارئ وتوثيق الحجة:

لأن المؤلف إذا استشهد بأقوال الأئمة ركن الناس إلى قوله واطمأنوا

إليه، فالنقل عن العلماء يزيد الكتاب قوةً وهيبةً، ويجعل الحجة قائمةً على أساسٍ من العلم الموثوق.

التأدب مع العلماء والتواضع للحق:

فالإكثار من النقول يذكّر المؤلف بقدر نفسه، وأنه حلقة في سلسلة العلماء، وليس مبتدعًا لطريقٍ جديد، وهذا من أعظم أبواب التزكية والتأدب في العلم.

فهذه الثمرات وغيرها هي سرّ خلود كتب العلماء الأوائل، وسرّ القبول الذي يجده المؤلف الصادق، إذ يضع نفسه في موكب العلماء، لا في صفوف المتصدرين المتعالمين.

ضوابط النقل عن العلماء

الإكثار من النقل عن العلماء لا يكون محمودًا إلا إذا كان مضبوطًا بضوابط العلم وأمانته، إذ إن النقل عبادة، والكلمة أمانة، ومن ضيّع الأمانة في النقل ضيّع بركة العلم، ولو أكثر من الكلام والاقتباس، ومن أهم هذه الضوابط:

التثبت من صحة النصوص المنقولة:

فلا ينقل الباحث قولًا إلا بعد مراجعة مصدره الأصلي إن أمكن، أو التحقق من صحة نسبته لصاحبه، فكم من الأقوال نُسبت إلى الأئمة وهي بريئة منها، فوقع بسببها الخلط والانحراف.

قال ابن المبارك رحمه الله: «الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء».

حسن العزو إلى المصادر:

فينبغي أن يُذكر الكتاب والجزء والصفحة إن تيسر، وأن لا يُكتفى بعباراتٍ عامةٍ كـ«قال أحد العلماء» أو «جاء في بعض الكتب»، لأن العزو الدقيق من دلائل الصدق والأمانة، وهو ما يجعل الكتاب مرجعًا موثوقًا.

عدم اجتزاء القول عن سياقه:

فقد يُفهم كلام العالم على غير مراده إذا اقتُطع من سياقه أو تُركت مقدمته وعلله، فواجب الباحث أن ينقل الكلام كاملًا أو يوضّح ما اختصره منه، وفاءً للمعنى والأمانة.

انتقاء النقول النافعة:

فليس المقصود الإكثار بلا تمييز، بل أن يكون النقل مقصودًا لزيادة الفائدة وتقوية الحجة، لا تزويق الكلام وتطويل الصفحات، كما قال بعض العلماء: «ليس العلم بكثرة النقل، وإنما العلم بالنور الذي يقذفه الله في القلب».

احترام العلماء وعدم تتبع زلاتهم:

فالمؤلف الأمين ينقل أقوال العلماء بإنصاف، ولا يورد أقوالهم للطعن أو الانتقاص، بل يذكرها بأدبٍ وتوقير، ولينبه على الخطأ دون تجاوز.

بيان الراجح عند الاختلاف:

فإذا تعددت الأقوال في المسألة، فعلى الباحث أن يعرضها عرضًا أمينًا، ثم يبيّن الراجح بدليله، دون تعصب أو جفاء، فهذا من تمام الإنصاف العلمي.

فبهذه الضوابط يكتمل أدب النقل بإذن الله، ويُثمر علم المؤلف نفعًا وبركة، ويُكتب له القبول بين العلماء والطلاب، إذ العلم أمانة، ومن حفظها أورثه الله القبول والرفعة في الدنيا والآخرة.

الباب الثامن:
ثمرات التأليف وأثره في الأمة

ليس التأليف حبراً يُسكب على الورق، ولا كلماتٍ تُسطّر في الدفاتر، بل هو عملٌ يُبقي صاحبه حيًّا وإن واراه التراب.

فالمؤلف الصادق يعيش بعد موته بما خلّفه من علمٍ نافعٍ وأثرٍ باقٍ، وما يكتبه اليوم يصبح غدًا لسانًا ناطقًا عنه في الدنيا والآخرة.

والأمم تُقاس بآثار علمائها، لا بطول أعمارهم، وبما خلفوه من كتبٍ نافعةٍ لا بما تركوه من قصورٍ شاهقةٍ أو أموالٍ فانية.

فكم من عالمٍ عاش زاهدًا مغمورًا، ثم خلّدته كتبه، وكم من غنيٍّ مُترفٍ مات فلم يُذكر اسمه إلا في سجلات الميراث.

عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ:

«إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ»(١)

فما ظنك بمن يكتب ما يُعين على فهم هذا الكتاب ونشر هداه؟ إنه من ورثة الأنبياء في البلاغ والتعليم، ومن حملة الأمانة الذين بمدادهم تُصان الشريعة ويُرفع الجهل عن الناس.

---

(١) رواه مسلم (٨٢٠).

وعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - يقول:

«مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًى لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْمَاءِ، وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»(١)

فالتأليف الصادق ميراثٌ نبوي، وآثاره تمتدّ ما دامت الكلمة تُقرأ والفكر يُتداول.

والمؤلف المخلص قد يُطوى جسده، ولكن تبقى روحه في كتبه، تجري على ألسنة الناس ذكرًا، وتُنير في القلوب أثرًا، فمن ثمرات التأليف ما يلي:

الفصل الأول: استمرار الأجر بعد الموت

من أعظم ثمرات التأليف أن يجعل الله به العمل جارياً بعد الموت، فيبقى أجر صاحبه متجدداً كلما انتفع أحد بكلامه.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ:

---

(١) رواه ابن حبان (٨٨) وصححه الإمام الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ١٣٨).

«إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»(١)

والعلم المؤلف هو عين «العلم المنتفع به»، لأنه يبقى بعد صاحبه ما بقيت الأمة تقرأ.

فكل قارئٍ يفتح كتابه، وكل طالبٍ يتعلم منه، وكل خطيبٍ أو واعظٍ يقتبس منه يُكتب له أجرهم جميعًا دون أن ينقص من أجورهم شيء.

وهذا من سعة فضل الله، إذ يجعل القلم الصادق جسرًا يمتد من الدنيا إلى الآخرة، ومدادًا يجري نفعه في الأحياء بعد أن يجفّ المداد في اليد.

فالمؤلف المخلص كالغارس يغرس شجرةً في الأرض، ثم يموت فتثمر بعده أعوامًا لا تنقضي، تؤوي طيرًا وتُظلّ إنسانًا ويأكل منها الناس.

جاء في «شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية» (١٢/ ٤٣٢):

«تأليف الكتب من العمل الباقي بعد الموت، كما قيل في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ:» فذكر منها: «أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ».

وقد قال بعضهم: الأقسام السبعة التي لا يؤلف عالم عاقل إلا فيها، هي: إما شيء لم يُسبق إليه فيخترعه، أو شيء ناقص يتممه، أو شيء مغلق يشرحه، أو شيء طويل يختصره دون أن يُخِلّ بمعناه، أو شيء مفرّق

---

(١) رواه مسلم (١٦٣١).

يجمعه، أو شيء مختلط يرتبه، أو شيء أخطأ فيه مصنّفه فيصلحه.

وكل ذلك داخل في قوله: «أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ»، بشرط كون العلم شرعيًّا». انتهى.

وقال الإمام الصنعاني في «التنوير شرح الجامع الصغير» (٢/ ٢٧٤):

«وما كان من العلوم وسيلة إلى هذه الثلاثة فله حكمها، وتعليم العلم يشمل التأليف والتدريس والنسخ وتصحيح كتب أهل الإسلام». انتهى.

قال المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ في «فيض القدير» (١/ ٤٣٨):

«أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ» كتعليم وتصنيف.

قال السبكي: «التصنيف أقوى لطول بقائه على ممر الزمان، لكن شرط بعض شراح مسلم لدخول التصنيف فيه اشتماله على فوائد زائدة على ما في الكتب المتقدمة». انتهى.

«وفي قوله «أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ» قيل: هو الأحكام المستنبطة من النصوص، والظاهر أنه عام متناول ما خلّفه من تصنيف أو تعليم في العلوم الشرعية وما يحتاج إليه في تعلمها.

قُيّد العلم بالمنتفع به لأن ما لا يُنتفع به لا يُثمر أجرًا، كما أن كتم ما يُنتفع به لا يُثمر أجرًا بل إثمًا وعذابًا، كما ورد في الحديث: «مَنْ كَتَمَ عِلْمًا تَلَجَّمَ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

قال الإمام السخاوي: «يشمل هذا الوعيد حبس الكتب عمّن يطلبها للانتفاع بها». انتهى.

وجاء في «إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين» (٣/ ١٨٧):

«وقوله علوم بثّها، أي بتعليم، أو تأليف، أو تقييد بهوامش، (قوله: أو علم يُنتفع به». انتهى.

فتأمل -أيها الباحث- كم ملأت مؤلفات أئمتنا من السلف الصالح ومن جاء بعدهم المكتبات الإسلامية، وكم انتفع بها المسلمون في العقيدة والتفسير والفقه وسائر أبواب العلم، فكم صححت من عقائد، وقوّمت من عبادات، وأنارت من بصائر، وكل ذلك يجري في موازين حسناتهم إلى يوم القيامة.

فأنت أيها المؤلف، إن صدقت مع الله في نيتك، وابتغيت بما تكتب وجهه الكريم، فقد نلت بإذن الله الصدقة الجارية التي لا تنقطع مادامت كلماتك تُقرأ وعلمك يُنتفع به.

وقال الإمام ابن باز رحمه الله كما في «فتاوى نور على الدرب» (١٤/ ٢٧٨):

«وهكذا لو ألّف مؤلفات نافعة، هو من تعليم العلم أيضًا، فالأئمة رحمهم الله الذين خلفوا كتبًا نافعة أجرهم باقٍ، مثل: البخاري، ومسلم، وأبي داود، والترمذي، والنسائي، وغيرهم.

لهم أجر هذه الكتب النافعة التي خلفوها، رحمة الله عليهم، وهكذا كل مسلم يخلف كتابًا نافعًا مفيدًا ينتفع به الناس له أجره». انتهى.

وقال فضيلة شيخنا العلامة عبد المحسن العباد حفظه الله في «شرح

سنن أبي داود» (٨/ ٣٣٩):

«قوله: «أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ»، المقصود بالعلم: العلم الذي يأخذه عنه تلاميذه، ويأخذ عنهم تلاميذهم وهكذا، أو عن طريق كتابة العلم، والمؤلفات النافعة التي يخلفها الإنسان وتبقى بعده سنين طويلة، وقد تمكث مئات السنين، فإنه كلما انتفع من هذه المؤلفات منتفع، وصل إليه ثوابه، وقد مضى على موته مئات السنين». انتهى.

وقال شيخنا صالح الفوزان حفظه الله كما في «مجموع فتاواه» (١/ ٣٧٤):

«كذلك إذا علَّم علمًا يُنتفع به من العلوم الشرعية النافعة، فإن هؤلاء المتعلمين الذين صاروا ينفعون الناس من بعده، يعود إليه الأجر وهو ميت؛ لأنه علَّم الخير، وكذلك إذا ألَّف مؤلفات ينتفع المسلمون بها، فإن هذا علم يُنتفع به، ويعود أجره لمن انتفع بهذه المؤلفات ما بقيت، وكذلك إذا طبع كتبًا نافعة وأوقفها على المسلمين ينتفعون بها، أو مصاحف من القرآن الكريم، كل هذا من العلم الذي يُنتفع به بعد موته، ويلحق من بذل فيه الأجر والثواب عند الله سبحانه وتعالى». انتهى.

فهنيئًا لمن جعل قلمه وقفًا لله، وأورث وراءه علمًا ينتفع به الناس، فذاك هو المؤلف الصادق الذي كتب الله له حياةً بعد موته، وذِكرًا لا يزول مع تعاقب الأيام.

الفصل الثاني: حفظ التراث العلمي من الضياع

الأمم إنما تُحفظ بالعلم، والعلم إنما يُحفظ بالتأليف، فلو لم يكتب الأوائل ما علموا، لضاع تفسير القرآن، واندثرت السنة، وغابت دقائق اللغة والفقه والحديث.

فالتأليف حفظٌ للهوية، وتوثيقٌ للمعرفة، وربطٌ بين الأمة وماضيها، حتى لا تنقطع سلسلة العلم.

وما كتب العلماء من قبلنا إنما كان لله، لا لمجدٍ شخصي، فبارك الله فيه حتى صار ميراثًا خالدًا.

وبهذا المعنى فالمؤلف ليس مجرّد كاتب، بل هو حارسٌ لتراث الأمة، وأمينٌ على ذخائرها العلمية، يذبّ عنها التحريف، ويعيد تقديمها بوجهٍ نقيٍّ للأجيال القادمة.

الفصل الثالث: بناء الجسور بين الأجيال

التأليف هو جسر الزمان، به تتواصل العقول وتتلاقى الأرواح عبر القرون.

فما من عالمٍ إلا وهو ابنٌ لكتبٍ قرأها، ونتاجُ أقلامٍ سبقته، ومن ثَمَّ صار هو نفسه جسرًا لمن بعده.

فكل مؤلفٍ صادقٍ يُسلم مشعل العلم إلى من بعده، ويُكمِل البناءَ حيث انتهى من سبقه، وبهذا تستمرّ مسيرة الأمة العلمية دون انقطاع.

ولولا الكتب ما عَرَفَ اللاحقُ فكرَ السابق، ولا انتفع المتأخرُ بتجربة

المتقدم، ولكن التأليف جعل بين الأجيال سبيلاً من نورٍ لا ينطفئ، وجعل عُمر الكلمة أطول من عمر الإنسان.

الفصل الرابع: تقوية الحجة على أهل الباطل

من ثمرات التأليف أنه يقيم الحجة، ويدفع الشبهة، ويُظهر الحق بالبرهان.

قال تعالى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

فالمؤلف إذا كتب بعلمٍ وعدلٍ كان من جند الحجة، وسلاحٍ من أسلحة الدعوة في وجه الباطل.

فكتب الردود والتحقيقات ليست خلافًا ولا جدالًا عقيمًا، بل هي جهادٌ علميٌّ يُحفظ به الدين وتُصان العقيدة.

وقد قال العلماء: «الجهاد بالبيان مقدمٌ على الجهاد بالسنان»، فالمؤلف الصادق مجاهدٌ بقلمه، يقيم الحجة بالحكمة، ويدفع الزلل بالحجة، ويغرس في الناس نور العلم بدل ظلمة الشبهة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في «الانتصار لأهل الأثر» المطبوع باسم «نقض المنطق» (ص٢١):

فالرادُّ على أهل البدع مجاهدٌ، حتى كان يحيى بن يحيى يقول: «الذبُّ عن السُّنة أفضلُ من الجهاد» اهـ.

الفصل الخامس: تخليد الذكر الحسن في الدنيا، والمثوبة في الآخرة

من ثمرات التأليف الصادق أن يرفع الله ذكر صاحبه في الدنيا، ويثيبه في الآخرة.

فكم من مؤلفٍ عاش مغمورًا بين الناس، لكن كتبه بعد موته أصبحت حديث طلاب العلم، يقرؤونها في المساجد وغيرها، فيلهجون بذكره، ويثنون عليه بالخير، وتلك هي الحياة الثانية التي يهبها الله لأهل الإخلاص.

قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح: ٤].

فكل من سار على نهج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ نال من بركة ذكره بقدر صدقه وإخلاصه.

فالمؤلف لا يسعى للمدح، ولكن الله يرفع من كتب له لا لنفسه، وينشر له القبول بين عباده، حتى يُذكر بالخير في قلوبٍ لم تره، وألسنةٍ لم تعرفه.

الفصل السادس: إحياء العزائم وبعث الهمم

من بركات التأليف أن يوقظ الله به الهمم، ويبعث العزائم في قلوب القاعدين.

فالكتاب الصادق لا يكتفي بتعليم العقول، بل يُلهب الأرواح، ويزرع الإيمان في القلوب.

وكم من قارئٍ قلبَتْ له كلمةٌ مكتوبةٌ مسارَ حياته، فاهتدى بعد ضلال،

أو نهض بعد فتور!

فالتأليف الصـــادق دعوةٌ دائمةٌ لا تعرف النوم، تعمل في ليل القارئ ونهاره، وتبثّ في الناس روحًا من العزم والإصـــلاح، حتى بعد أن يطوى جسد كاتبها.

العلـم يبقى زمـان بعـد كـاتبـه وكاتب العلم تحت الأرض مندفنا

إن الكلمة إذا خرجت من قلبٍ صـــادقٍ بلغت من القلوب ما لا تبلغه الخطب ولا الدروس، فكيف إذا كُتبت بحبرٍ ممزوجٍ بالإخلاص!

الفصل السابع: الإسهام في نهضة الأمة وتجديد علومها

من ثمرات التأليف أن يكون وسيلةً لإحياء العلوم وتجديدها، وصياغة الفقه الإسلامي بلغة العصر دون أن يفقد أصالته.

فالأمة الحيّة هي التي تُجدّد علمها بالكتابة والتحقيق، وتســتخرج من تراثها ما يصلح لزمانها.

والمؤلف حين يجمع بين الأمـانـة في النقـل، والحكمـة في العرض، والقدرة على الإقناع، يشـــارك في صـــناعة نهضـــةٍ فكريةٍ تمتد أثرًا في الأمة كلها.

فالتأليف ليس جهدًا فرديًّا فحســـب، بل هو لبنةٌ في صـــرحٍ جماعيٍّ متماسـك، به تُبنى الحضـارة، وتُقوّى الهوية، ويُستأنف مجد الأمة بالعلم النافع والعمل الصالح.

ختاما:

يا من رفعت القلم لله، أبشر! فما من كتابٍ صادقٍ إلا وله أثرٌ لا يُمحى، وما من مؤلفٍ مخلصٍ إلا وله نصيبٌ من ميراث النبوة.

التأليف عبادةٌ بالقلب، وجهادٌ بالعقل، وصدقةٌ جاريةٌ بالمداد.

به تُحيى العلوم، وتُصان العقائد، وتُخلّد الأسماء، ويُجري الله به الخير في البلاد والعباد.

فاحرص أن تكون كلمتك نورًا لا دخانًا، وكتابك هدايةً لا فتنة، وهدفك وجه الله وحده، فإن صدقت نيتك، كُتبت من ورثة الأنبياء ولو لم تُعرف بين الناس.

الباب التاسع:
الباحث بين التقنية والأمانة العلمية

الفصل الأول تمهيد نعمةُ التقنية وتسخيرها في خدمة العلم

لقد مَنَّ الله على أهل هذا العصر بنعمةٍ عظيمةٍ ما كانت تخطر ببالٍ في القرون الماضية، وهي نعمة التقنية الحديثة وما فتح الله بها من أجهزةٍ وبرامجٍ ومكتباتٍ رقميةٍ وموسوعاتٍ علميةٍ تختصر الأعمار وتيسِّر الوصول إلى العلم في دقائق معدودة.

ففي الماضي كان طالب العلم يقطع الأسفار الطويلة ليحصل على جزءٍ من كتابٍ، وربما نفدت نُسخه في بلدٍ بأكمله، وكان العلماء يكتبون كتبهم بأيديهم، ويمكث الناسخ شهورًا في نسخ مجلدٍ واحدٍ على ضوء السراج، ومع هذا التعب خرجت لنا ذخائر لا تُقدّر بثمن.

أما اليوم، فقد يسَّر الله لنا ما لم يخطر لهم على بال:

فبنقرةٍ واحدةٍ تصل إلى آلاف الكتب في المكتبة الشاملة، وتراجع أقوال المفسرين والمحدثين، وتستحضر كتب العقيدة والفقه واللغة في لحظةٍ واحدة.

وببرامج التخريج الحديثة تستطيع جمع طرق الحديث في دقائق بعد

أن كان المحدّثون يجوبون البلدان بحثًا عنها.

وبمحركات البحث والموسوعات، تقدر أن تقارن بين المذاهب وتطّلع على عشرات المراجع وأنت في بيتك، على مكتبك الصغير، وفي وقتٍ يسير.

فأيُّ نعمةٍ هذه؟!

وأيّ فضلٍ أُفيض علينا ونحن نغفل عنه أحيانًا؟

قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨﴾ [سورة النحل:١٨].

إن هذه الوسائل الحديثة لم تُبدّل طريق العلم، ولكنها يسّرته، فبقي الأصل هو الإخلاص، والمنهج، والتحقيق، مع وسيلةٍ أسهل وأوسع.

ولهذا كان من المهم على طلاب العلم والدعاة والباحثين أن يُقبلوا على تعلّم استخدام هذه الأدوات تعلّمًا واعيًا منضبطًا، لا سطحيًا ولا ارتجاليًا، فإن الجهل بها اليوم يُعدُّ قصورًا في آلة التحصيل لا يليق بمن تصدّر للعلم.

فينبغي على المشايخ وطلبة العلم أن يُولوا تعليم التقنية البحثية عنايةً خاصة، كما يُدرِّسون أصول الفقه والحديث، لأنها صارت آلةً من آلات الاجتهاد المعاصر.

فالعلم اليوم ميسّر بأجمل صورة، ولكن البركة لا تنزل إلا على من استعمل الوسيلة بنيةٍ صادقةٍ وأدبٍ علميٍّ راقٍ، فليكن شعار الباحث

المعاصر: «العلم الحديث وسيلةٌ لخدمة المنهج القديم».

الفصل الثاني: ينبغي استشعار عظمة النعمة ومسؤولية الأمانة

لقد جعل الله في هذه الأجهزة آيةً من آيات تسخير العلم، فبضغطة زرٍّ تفتح لك آلاف الكتب التي كان الأئمة يقطعون فيها الليالي سفرًا ونسخًا، وهذه نعمة تستوجب الشكر لا الغفلة.

فليبدأ الباحث كل جلسةٍ على جهازه ببسم الله، وليجعل نيةً في طلب العلم لا في مجرد التصفح.

وليعلم أنه مسؤولٌ عن كل ما يكتب أو ينقل أو يشارك، لأن الحاسوب – وإن كان آلة – فهو شاهد عملٍ تُسطر فيه حسناتك وسيئاتك.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ٣٦﴾ [الإسراء: ٣٦].

الفصل الثالث: إدارة الملفات وتنظيم البيانات العلمية

لا شيء أثقل على الباحث من الفوضى الرقمية؛ ملفات مبعثرة، نسخ متعددة، وضياع للوقت في البحث عن فصلٍ أو مرجع.

ولذلك فليجعل الباحث لنفسه نظامًا دقيقًا وذلك بأمور:

١ – أن يُنشئ مجلدًا رئيسًا باسم البحث، وتحته مجلدات للفصول والمراجع والنسخ الاحتياطية.

٢ – أن يحفظ عمله كل ربع ساعة تقريبًا، وأن يُفعّل خاصية الحفظ التلقائي في الوورد.

٣- أن يحتفظ بنسخةٍ احتياطيةٍ في قرصٍ خارجي، ونسخةٍ أخرى في التخزين أو في النت أو في هارد

ولا يثق بذاكرة الكمبيوتر وحدها، فكم من مؤلفٍ بكى لذهاب بحثه بانكسار جهازٍ أو انقطاع كهرباء أو حذفٍ غير مقصود، فاحذر يا طالب العلم أن تجعل تعب السنين رهين زرٍّ واحد!

الفصل الرابع: حسن استخدام برامج الكتابة في الوورد

لقد أصبحت التقنية اليوم من أعظم ما سُخِّر لخدمة العلم ونشر المعرفة، فهي تسّرع العمل، وتُعين على الضبط بتوفيق الله، وتُجمّل الإخراج، وتخفّف عن المؤلف كثيرًا من المشقة التي كان يلقاها الأوائل في النسخ والترتيب والمراجعة.

ومن أبرز هذه الوسائل برامج الكتابة الحديثة، وفي مقدمتها برنامج الوورد (Word)، الذي غدا أداةً رئيسة لكل باحثٍ وكاتبٍ ومؤلف.

وإن إتقان استعماله ليس من باب ضياع الوقت، بل من كمال الحرص على الوقت، وحسن الصنعة في التأليف.

فيه تُرتَّب الفصول، وتُبنى الهوامش، وتُضبط الإحالات، ويخرج الكتاب في صورةٍ تليق بالعلم وأهله.

وإن المؤلف البصير لا يقف عند مجرد الكتابة، بل يعرف كيف يُحسن التعامل مع أدواته، ويستثمر التقنية في طاعة الله ونفع الناس، دون أن يُغريه البهرج أو يلهيه عن جوهر المقصود، وهو الإخلاص، والإتقان، والصدق

في العمل.

الفصل الخامس: الاستفادة من المكتبة الشاملة وبرامج البحث العلمي.

المكتبة الشـــاملة من أعظم نعم الله على طلاب العلم، ولكنها تحتاج إلى أمور في التعامل معها وضبطٍ في الاستخدام لها فمن ذلك:

١- لا تجعلها بديلًا عن الرجوع للطبعات الورقية المعتمدة، بل وسـيلة مساعدة أولية.

٢- إذا نقلت نصًّـــا منها، فاذكر مصـــدره بدقةٍ مع الجزء والصـــفحة والطبعة، لأن نسخ الشاملة تختلف.

٣- لا تنقل من الشـــاملة دون قراءة ما قبل النص وما بعده، فقد يقع الباحث في اقتطاعٍ مخلٍّ للسياق.

٤- راجع نتائج البحث؛ فالشـــاملة قد تُخرج مئات النتائج، فلا تعتمد أول نتيجة دون تمحيص.

٥- وأهم ما في التعامل معها: الصـــبر، فإن الشـــاملة بحر، لا ينفعك الغوص فيه بلا خطةٍ ولا معرفةٍ بالاتجاهات.

الفصل السادس: في التعامل مع الإنترنت والشبكات العلمية

لقد غيّر الإنترنت وجه العالم العلمي، فصـــار الوصـــول إلى المعلومة أيسرَ من أيّ وقتٍ مضى، وتيسّرت بسببه الخزائن والمكتبات والدروس والمراجع في لحظات معدودة.

غير أن هذه النعمة العظيمة قد تصير نقمةً إن لم تُضبط بضوابط الشرع والعلم والأمانة.

فالتعامل مع الشبكات العلمية يحتاج إلى فقهٍ وبصيرةٍ؛ إذ فيها الصحيح والضعيف، والموثوق والمجهول، والمفيد والمشوّش.

والمؤلف الراسخ هو من يحسن الانتفاع بها من غير إفراطٍ ولا تفريط: يأخذ منها ما يعين على البحث والتحقيق، ويعرض عنها إذا خشي الفتنة أو التضييع، ويستعملها وسيلةً لا غاية، ومعبَرًا لا مَقرًّا.

ومن تمام الأدب العلمي أن يتحلى الباحث بالأمانة في النقل عن المواقع الإلكترونية، ويُحسن العزو إلى المصادر الرقمية كما يُحسن النقل عن الكتب الورقية، ليبقى العلم محفوظًا في زمنٍ كثرت فيه الأقوال وسَهُل فيه التزوير.

وهكذا يكون طالب العلم في عالم الشبكة كما هو في محرابه: متيقّظًا، منصفًا، نزيهًا، محتسبًا.

فمن آداب استخدامه للبحث العلمي:

١- لا تدخل إلا المواقع العلمية الموثوقة.

٢- احذر المنتديات القديمة والمواقع التي لا توثق مصادرها.

٣- عند النقل من الإنترنت، انسخ النص كما هو ثم راجعه من المصدر الأصلي إن وُجد مطبوعًا.

٤- لا تُضيع الوقت في تصفح ما لا حاجة له، واجعل تصفحك مركزًا

على مسألةٍ محددة.

٥- وإذا وجدت بحثًا علميًا أو PDF نافعًا، فاحفظه في مجلدٍ منظمٍ باسم المؤلف والموضوع.

٦- لا تعتمد على الذكاء الاصطناعي وحده في النقل، فإنه يُعينك ولا يقوم مقام التحقيق اليدوي.

الفصل السابع: تهذيب النفس عند الجلوس أمام الجهاز

فكثيرون يفتحون أجهزتهم ليكتبوا، فإذا بهم يُفتنون أو يضيع وقتهم بين الصفحات، أو تزلّ أبصارهم فيما لا يليق، والمؤلف الصادق يعلم أن التقنية إنما هي وسيلةٌ لخدمة الدين والعلم، وأن جلوسه أمام الشاشة ينبغي أن يكون كجلوسه في مجلس علمٍ أو محراب فيحتاج إلى نيةٍ صالحة واحتساب، وحضور قلب، وحفظٍ للوقت والبصر والفكر.

ومن تهذيب النفس أن يبدأ عمله بذكر الله، وأن يغلق جهازه على طاعةٍ ورضًا، وأن يراقب أثر عمله في قلبه، فإن وجد خشوعًا وطمأنينةً فليحمد الله، وإن وجد قسوةً أو مللًا فليجدد النية ويستغفر.

وهكذا يكون المؤلف الرباني في زمن التقنية: قلبُه معلقٌ بالآخرة، وقلمه يخدم الرسالة، وجهازه وسيلةٌ لرضوان الله لا لفتنة النفس.

الفصل الثامن: الاستعانة بالتقنية لا الاستعباد بها

لقد فُتحت للإنسان في هذا العصر أبواب التقنية تسهيلًا لا تعجيزًا، وإعانةً على الطاعة لا استدراجًا إلى الغفلة، ولكن النفوس إذا غفلت عن

المقصد تحوّلَت الوسيلة إلى عبوديةٍ من نوعٍ آخر.

فكم من مؤلفٍ بدأ يستخدم التقنية لتيسير بحثه، فإذا به لا يستغني عنها لحظة، ولا يهنأ إلا أمام شاشته، حتى غدت هي التي تملكه لا هو الذي يملكها! والمؤلف البصير هو من يُبقي التقنية جاريةً في يده لا جاريةً عليه، يستخدمها بقدر الحاجة، ويغلقها عند المفسدة، ويعلم أن البركة في الكفاية لا في الإغراق، وأن ضياع الوقت بين الأجهزة من أعظم ما يُضعف القلب ويُبلّد الفكرة.

فالتقنية منحةٌ إذا وُضعت في موضعها، ومحنةٌ إذا تجاوزت حدّها، والعاقل من جعلها سلّمًا يرتقي به إلى العلم والعمل، لا قيدًا يُكبّله عن الخشوع والتأمل.

ومن تمام نعمة الله على المؤلف أن يُحسن ضبط هذه الوسائل، فيجعلها خادمةً للعلم لا صارفَةً عنه، ومعينةً على التأليف لا قاطعةً لأسبابه.

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبه تُشرق الفِكَر وتستنير الصفحات.

والصلاة والسلام على من علّم الأمة العلم والبيان، وعلى آله وصحبه أهل الصدق والإحسان.

أما بعد:

فهذه صفحاتٌ جمعتها في النصائح الجليّة لمن أراد تأليف الكتب والرسائل العلمية، بذلت فيها جهدي، واستفرغت وسعي، وجمعت مادتها من تجارب التأليف، ومشاهدات الميدان، وخبرة السنين في التدريس والبحث، رجاءَ أن تكون دليلًا عمليًا لطالب العلم، ورفيقًا صادقًا لكل مؤلفٍ يريد أن يكتب لله لا لنفسه.

ولستُ أزعم أني أتيتُ على كل ما في هذا الباب من دقائق وآداب، فالتقصير سجيّة البشر، والكمال لله وحده، وإنما قدّمت ما يسّره الله لي، وأرجو أن يكون فيه نفعٌ وتذكرةٌ لمن أراد سلوك هذا السبيل الشريف.

إن القلم أمانة، والصفحة شهادة، والعلم ميراث الأنبياء، فليتقِ الله كل مؤلفٍ في ما يكتب، وليعلم أن كلماته باقيةٌ بعده، تُتلى في المجالس

وتُدرّس في المدارس وتُوزن في الآخرة بميزان العدل. فليجعلها حروفًا تشهد له لا عليه.

وإني لأرجو من الله الكريم أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه، نافعًا للمسلمين، باعثًا على نهضة علميةٍ راشدةٍ تقوم على الإخلاص والمنهج، وأن يرزقنا القبول، وأن يجعل ما خطّه القلم في هذا الكتاب سببًا لهداية، أو نفع، أو تصحيح، أو تذكير وأن ينفع به من كتبه وقرأه، وأن يجعله سببًا لهداية طالبٍ، أو تثبيت عالمٍ، أو نفعِ مسلمٍ، وأن يغفر لي ما كان فيه من تقصيرٍ أو نسيان.

وأوصي نفسي وإخواني من طلاب العلم أن لا يستهينوا بفكرةٍ يخطّونها، فربَّ كلمةٍ صادقةٍ بارك الله فيها فكانت فتحًا، وربّ مجلدٍ طويلٍ خلا من النية فكان وبالًا.

فالمعيار عند الله هو الإخلاص، لا الكثرة ولا الشهرة.

هذا، وما كان في هذا الكتاب من صواب فمن الله وحده، وما كان من خطأٍ أو تقصيرٍ فمني ومن الشيطان، وأستغفر الله منه، وأسأله أن يغفر لي ولوالديَّ ولمن علّمني وأرشدني وقرأ لي أو نفعني بعلمه.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

كَـتَـبَهُ

أبو المـنـــــذر

عـمـار بن عبـد الجليـل

ابـــن هـــزاع الـــوريـــفـــي

الحـــــــــــوبـــــــانـــــي

عَـــفَا اللهُ عَـنْـــهُ، وَغَـفَـــرَ لَـهُ وَلِـوَالِـدَيْـــــهِ.

دار الحـديـث السـلـفـيـة بشـحـوح -سيـئـون-حـضـرموت

لـــسـنـــة ١٤٤٧ مـن هـــجـرة النَّبِيّ مـحـمـــد- ﷺ-.

الفهرس

المقدمة ٤

تمهيد مقصد الكتاب وغايته ٩

تهذيب:..... ١١

متى كان بدء تأليف الكتب؟ ١٢

الباب الأول: التأليف عبادة ومسؤولية ١٧

الفصل الأول معنى التأليف لغةً واصطلاحًا:..... ١٩

الفصل الثاني: فضل الكتابة وشرف التأليف في الإسلام ١٩

الفصل الثالث: من كلام العلماء في شأن التأليف..... ٢٨

الفصل الرابع: آفة التصدر للتأليف قبل التمكن: ٣٣

والخلاصة: ٣٦

الباب الثاني: نعمة موهبة التأليف وشكرها وآداب حَمْلها ٤٣

الفصل الأول: التهيئة العلمية قبل الكتابة. ٤٦

الفصل الثاني فقه البحث والتوثيق العلمي..... ٤٩

أولًا: وجوب التثبت في جمع المادة ٥٠
ثانيًا: الجمع بين النقل والفهم: ٥٠
ثالثًا: التوثيق والعزو..... ٥١
رابعًا: أدب الباحث مع إخوانه من طلاب العلم..... ٥٥
خامسًا: ترتيب المادة وتنظيم الفكرة..... ٥٦
الباب الثالث: أصول التأليف العلمي ٥٨
الفصل الأول: بناء الفكرة وتحديد المقصد..... ٥٨
الفصل الثاني: وضع خطة البحث..... ٦١
الفصل الثالث: تحرير المسائل العلمية ٦٣
ولتحرير المسائل ضوابط منها:..... ٦٤
الفصل الرابع: الموازنة بين الإيجاز والتفصيل..... ٦٦
الفصل الخامس: إخراج المعنى في أسلوبٍ نافعٍ مؤثر..... ٦٧
الباب الرابع: صناعة الكتاب وصياغة الرسالة ٧١
الفصل الأول: آداب الكاتب في نفسه. ٧١
ومن آداب الكاتب في نفسه: ٧٢
الإخلاص في النية: ٧٢

التواضع للحق وأهله:..... ٧٢
الزهد في الشهرة والثناء:..... ٧٢
الصبر على البحث والكتابة:..... ٧٢
الأمانة العلمية:..... ٧٣
دوام التزكية والمحاسبة:..... ٧٣
الفصل الثاني: أسلوب الكتابة..... ٧٤
الفصل الثالث: ضوابط التأليف الراسخ ٧٥
الأولى: عدم تكرار ما أُلِّف إلا بزيادةٍ علميةٍ نافعة ٧٦
الثاني: التحقّق من المصادر والإحالات ٧٨
الثالث: العناية بالتنسيق والمراجعة..... ٧٩
الرابع: تجنّب كثرة الحواشي المملّة..... ٧٩
الخامس: الجمع بين العلم والبيان ٨١
السادس يجمع المادة ويقمش كما قيل قمش ثم نقش ٨١
الباب الخامس: فوائد من سير المؤلفين الأوائل ٨٤
الفصل الأول: منهج السلف في التأليف..... ٨٤
والخلاصة في ذلك أنهم تحلوا بأمور منها:..... ٨٥

الإخلاص أساس العمل العلمي:..... ٨٥
الصدق العلمي قبل البلاغة الأدبية:..... ٨٥
الاقتصاد في الكلام، والغزارة في المعنى:..... ٨٦
وضوح المقصد في التأليف:..... ٨٦
الانطلاق من النصوص لا من الآراء:..... ٨٦
تحرير النقل وتوثيق العلم:..... ٨٦
التأليف ثمرةُ التلقّي والتربية:..... ٨٦
الزهد في الكثرة والشهرة:..... ٨٧
المنهجية في العرض والبيان:..... ٨٧
التوازن بين العلم والتربية:..... ٨٧
الغيرة على الحق والرد على الباطل:..... ٨٧
الاهتمام بسلامة العقيدة والمنهج:..... ٨٧
التدرج في التأليف:..... ٨٨
حسن اختيار العنوان والمضمون:..... ٨٨
التحرير الدقيق للألفاظ والمصطلحات:..... ٨٨
الحرص على النفع العام:..... ٨٨

الإشراف الروحي على العمل: ٨٨
الإقرار بالنقص وترك الغرور العلمي: ٨٩
استدامة المراجعة والتحقيق: ٨٩
البصيرة في ترتيب الأولويات العلمية: ٨٩
الباب السادس: ضوابط النشر والإخراج ٩٠
الفصل الأول: قبل النشر والطباعة ٩٠
المراجعة الدقيقة لغويًا ٩١
عرض الكتاب على من يُحسن النقد ٩٢
التحرز من الأخطاء المطبعية والإملائية ٩٣
خلاصة الأدب في هذا الأمر: ٩٤
الفصل الثاني: في إخراج الكتاب ٩٥
حسن اختيار العنوان والتصميم ٩٥
صفات غلاف الكتاب النافع ٩٦
أخطاء المؤلفين في عناوين كتبهم وتصاميمهم ٩٧
العناية بالترتيب والفهرسة ٩٨
طباعة الكتاب دون التعلق بمظاهر الفخامة ٩٩

إخراج نسخة أولية وملازم احتياطية.....١٠١
الفصل الثالث: بعد النشر.....١٠٢
قبول النقد بصدر رحب.....١٠٣
عدم حبس العلم (تحذير من غلول الكتب).....١٠٤
متابعة جديد المؤلفات.....١٠٦
الباب السابع: خلاصة آداب المؤلف وأخلاقه.....١٠٨
الفصل الأول: الإخلاص لله في القول والعمل.....١٠٩
الفصل الثاني: التواضع العلمي ونبذ الكبر.....١١١
الفصل الثالث: الإنصاف في النقل والحكم.....١١٣
الفصل الرابع: الأمانة العلمية والتحرّي في النقل.....١١٤
الفصل الخامس: الرفق بالمنتقدين والمخالفين.....١١٥
الفصل السادس: شكر من أعان وساهم في الكتاب.....١١٦
الفصل السابع: التأدب مع العلماء وأصحاب الفضل.....١١٧
الفصل الثامن: الزهد في الثناء وحب الظهور.....١١٨
الفصل التاسع: الاعتراف بالنقص والتقصير.....١١٨
الفصل العاشر: إحسان الخاتمة بالدعاء والاستغفار.....١٢١

الفصل الحادي عشر: الاقتصار على ما يُحسن المؤلف.....١٢٢
الفصل الحادي عشر: الإشادة بمن سبقه في الميدان.....١٢٣
الفصل الثاني عشر: الإنصاف وعدم تتبع الزلات.....١٢٤
الفصل الثالث عشر: الثبات بعد التأليف.....١٢٥
الفصل الرابع عشر: الاستعانة بالأذكار والدعاء لحفظ النشاط ١٢٦
الفصل الخامس عشر: دوام التجديد والمراجعة.....١٢٨
الفصل السادس عشر: العمل بالعلم.....١٢٩
والثامن عشر: احذر من استعجال الثمرة.....١٣١
الفصل السابع عشر: لا يتثبّط بكلام المثبّطين ولا يلتفت للمحقّرين ١٣٢
الفصل الثامن عشر: التفرّغ الذهني والتهيئة النفسية قبل التأليف ..١٣٤
الفصل التاسع عشر: النية المتجددة أثناء الكتابة ١٣٥
الفصل العشرون: لحظات المؤلف بين المداد والدعاء ١٣٦
الفصل الحادي والعشرون: حقوق الناشرين والمراجعين ١٣٨
الفصل الثاني والعشرون: دوّن كل فكرة تخطر لك، فربّ خاطر يصبح مشروع كتاب.....١٣٩
الفصل الثالث والعشرون: ابدأ صغيرًا، ولا تستحقر الكتابة القصيرة،

فالمؤلفات العظيمة كانت بذورًا يسيرة ١٤١
الفصل الرابع والعشرون: الإلمامُ في البحث ١٤٢
الفصل الخامس والعشرون: الصبرُ وعدمُ الملل ١٤٤
الفصل السادس والعشرون: أن يدرك المؤلف الفرق بين المؤلف النافع والمكثر بلا فائدة.....١٤٥
الفصل السابع والعشرون: أهمية توحيد المنهجية في العزو.....١٤٦
الفصل الثامن والعشرون: لا تبتغِ بمؤلفاتك الدنيا ١٤٧
التاسع والعشرون: لا تنتظر مدح مادح لما تؤلفه.....١٥٠
الفصل الثلاثون: لزوم منهج السلف والنقل من كتب العلماء المتقدمين والمتأخرين.....١٥٣
ثمرات الإكثار من النقل عن العلماء.....١٥٥
الرسوخ في العلم: ١٥٥
السلامة من الخطأ والهوى: ١٥٥
تحصيل بركة العلم:.....١٥٥
إقناع القارئ وتوثيق الحجة: ١٥٥
التأدب مع العلماء والتواضع للحق:.....١٥٦
ضوابط النقل عن العلماء.....١٥٦

التثبت من صحة النصوص المنقولة:.....١٥٦

حسن العزو إلى المصادر:.....١٥٧

عدم اجتزاء القول عن سياقه:.....١٥٧

انتقاء النقول النافعة:.....١٥٧

احترام العلماء وعدم تتبع زلاتهم:.....١٥٧

بيان الراجح عند الاختلاف:.....١٥٨

الباب الثامن: ثمرات التأليف وأثره في الأمة ١٥٩

الفصل الأول: استمرار الأجر بعد الموت ١٦٠

الفصل الثاني: حفظ التراث العلمي من الضياع.....١٦٥

الفصل الثالث: بناء الجسور بين الأجيال ١٦٥

الفصل الرابع: تقوية الحجة على أهل الباطل ١٦٦

الفصـــل الخامس: تخليد الذكر الحســـن في الدنيا، والمثوبة في الآخرة ١٦٧

الفصل السادس: إحياء العزائم وبعث الهمم.....١٦٧

الفصل السابع: الإسهام في نهضة الأمة وتجديد علومها ١٦٨

ختاما:.....١٦٩

الباب التاسع: الباحث بين التقنية والأمانة العلمية ١٧٠

الفصل الأول تمهيد نعمةُ التقنية وتسخيرها في خدمة العلم.....١٧٠

الفصل الثاني: ينبغي استشعار عظمة النعمة ومسؤولية الأمانة ١٧٢

الفصل الثالث: إدارة الملفات وتنظيم البيانات العلمية.....١٧٢

الفصل الرابع: حسن استخدام برامج الكتابة في الوورد.....١٧٣

الفصل الخامس: الاستفادة من المكتبة الشاملة وبرامج البحث العلمي.
.....١٧٤

الفصل السادس: في التعامل مع الإنترنت والشبكات العلمية ١٧٤

الفصل السابع: تهذيب النفس عند الجلوس أمام الجهاز ١٧٦

الفصل الثامن: الاستعانة بالتقنية لا الاستعباد بها.....١٧٦

الخاتمة ١٧٨

الفهرس ١٨١

تلخيص الفوائد ١٩١

تلخيص الفوائد

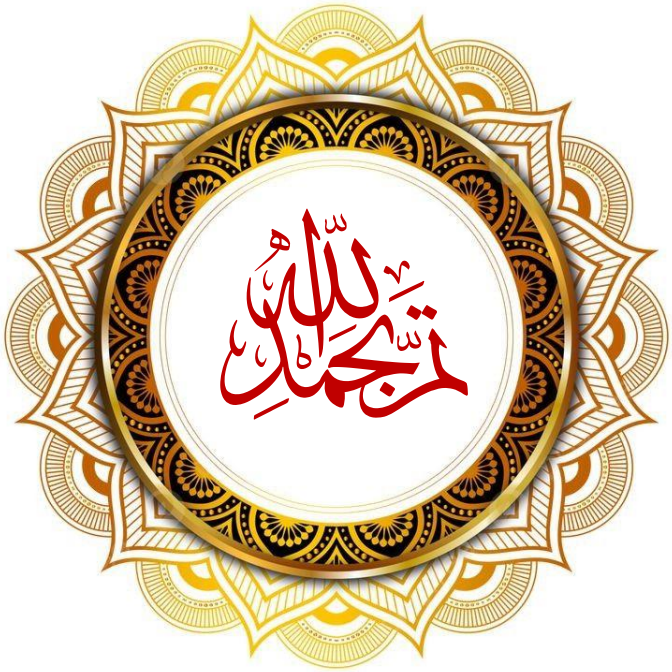
لله الحمد

صدر حديثًا للمؤلف

دار الإمام الشافعي
للطباعة والنشر والتوزيع
اليمن - عدن

عدن - الشيخ عثمان جولة القاهرة - خلف فندق الريان
+٩٦٧ ٧٣٦٩٠١٨٢٤ - +٩٦٧ ٧٧٤٤٢٧٥٧٢
عدن - الشيخ عثمان جولة القاهرة - خلف محطة النهدي
+٩٦٧٧٧٠٠١٢٥٢٢
حضرموت الحامي - جوار مسجد أنور - الشارع الشرقي من النادي
+٩٦٧ ٧٧٧٣٤٩٥٢٣ - +٩٦٧ ٠٥٣٤١٥٩٨
حضرموت سيئون شحوح - مقابل مسجد ابراهيم . ومدرسة شحوح للبنين
+٩٦٧٧٨٣٢٤٦٥١٣
alshafibooks@gmail.com